الرد على البكري

تلخيص كتاب الاستغاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا مما وجد في مجموع مخطوط فيه مسائل شتى لشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية ومنه :

فصل في ذكر البكري الذي رد على شيخ الإسلام في مسألة الاستغاثة ، أثبتنا هنا ما عثرنا عليه بحروفه وبالله التوفيق وهذا نصه :

فصل في ذكر البكري

قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تاريخه :

اسمه على بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري توفي يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ودفن بالقرافة وقد هم السلطان بقتله مرارا فتشفع فيه الأمراء وكان يقال له نور الدين أبا الحسن ، له رد على الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة الاستغاثة بالمخلوقين أضحك فيها على نفسه العقلاء وشمت به فيها الأعداء لأن مثله مثل ساقية صغيرة كدرة الماء لاطمت بحرا عظيما صافي الماء قد ملئ درا وجوهرا وحكمة وعلما أو كرملة صغيرة أرادت زوال جبل شامخ عن محله حطما فكان كما قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية : إن كلامه لا يتكلم به أحد من أهل العلم والإيمان وإنما يتكلم به أعور بين عميان يروج عليهم بسبب ضلالهم وإضلالهم ما يقوله من الهذيان.

وكان شيخه شمس الدين الجزري قد رد عليه فيما دخل فيه في هذا المسألة من التكفير وأعظم عليه في ذلك النكير و بين أن هذا الكلام الذي صدر منه لا يقوله أحد ممن يعرف بالعلم و الإيمان و إنما يقوله جاهل في

غاية الجهل أو صبي مع الصبيان و أخذ شيخه يندب على مصر و ينوح إذ كان مثل هذا الكلام يظهر به فيها شخص ويبوح.

قال ابن تيمية : رأيت أن مثل هذا لا يخاطب خطاب العلماء وإنما يستحق التأديب البليغ والنكال الوجيع الذي يليق بمثله من السفهاء إذا سلم من التكفير فإنه لجهله ليس له خبرة بالأدلة الشرعية التي تتلقى منها الأحكام ولا خبرة بأقوال أهل العلم الذين هم أئمة أهل الإسلام بل يريد أن يتكلم بنوع مشاركة في فقه و أصول و تصوف و مسائل كبار بلا معرفة و لا تعرف والله أعلم بسريرته هل هو طالب رياسة بالباطل أو ضال يشبه الحالي بالعاطل أو اجتمع فيه الأمران وما هو من الظالمين ببعيد.

قال : و كلامه في الاستغاثة بغير الله أتى فيه من الجهالات بالعجب العجاب ، قال : فمجموع ما قاله ما علمت أنه سبقه إليه أحد من المسلمين و مع هذا إنه لم يجترئ على أن يكتب فيها شيئا حتى نظر جوابي في الاستفتاء الذي كتبته و أرسل به إلي فاستعان به على ما قاله وأعاره بعض الأمراء كما أخبرني كتابي الذي كنت صنفته من مدة و سميته الصارم المسلول على شاتم الرسول فإني ذكرت فيه ما يجب على من سب الرسول صلى الله عليه وسلم من العقوبات الشرعية و ذكرت فيه من أصول هذه المسألة و فروعها و الدلائل الشرعية عليها و كلام أئمة الإسلام فيه ما يعرفه من وقف عليه فأخذ هذا الكلام مما ذكرته في ذلك و جعلته صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل النفاق و الاعتداء ما استعمله هذا الجاهل الظالم في حق أهل العلم و الاهتداء ... إلى أن قال شيخ الإسلام : ثم إن الأصحاب تقاضوني تعليقا على كلام هذا الظالم الجاهل لئلا يضل بكلامه بعض الطغام حتى قال لي بعضهم إن الكلام على هذه

المسألة من أفضل الكلام إذ فيها بيان التوحيد و نفي الشرك عن الصمد المجيد فإن أول ما نشأ الشرك و عبادة غير الله من القبور ، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي الهياج الأسدي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال له : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته. فأمره بمحو الشرك و أصله الذي ينشأ منه.

والمقصود أن الشيخ رد على البكري و نقض قوله نقضا أجاد فيه و أفاد وبين ما فيه من حق و باطل في مجلدة كبيرة أبطل فيها أنواع الشرك الاعتقادي و العملي و ما يتفرع منهما بالأدلة و البراهين القاطعة المقبولة التي تسر قلوب أهل السنة و تقر أعينهم عند سماعها و تسود وجوه أهل الأهواء و البدع و يرهقها قتر و ذلة فرحم الله من قبل الحق و نصره و رد الباطل و خذله و أهله.

و مما استدل به البكري الحديث الذي يروي أن آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة و جرى ما جرى استشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الله يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه بعد قال له لما نفخت في الروح رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق عليك فقال صدقت يا آدم إنه لأحب خلقي إلي وإذ سألتني به فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك وهو آخر الأنبياء من ذريتك. ذكره في رده مع نظائره من هذا الجنس الذي لا يستجيز الصبيان ذكره فضلا عن الجهال فضلا عمن شم للعلم شمة أو نشق له رائحة ، قال : وقد رواه بصيغ مختلفة من المفسرين والمحدثين من لا أحصيهم كثرة ولم يروه من المرويات المنكرة ، قال : وقد جاء أن نوحا وإدريس

وأيوب وموسى وجماعة من الأنبياء توسلوا به ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في نقضه كلامه وحله إبرامه :

فيقال أولا هذا الحديث وأمثاله لا يحتج به في إثبات حكم شرعي لم يسبقه أحد من الأئمة إليه وإثبات عبادة لم يقلها أحد من الصحابة ولا التابعين وتابعيهم إلا من هو أجهل الناس بطرق الأحكام الشرعية وأضلهم في المسالك الدينية ، فإن هذا الحديث لم ينقله أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم لا بإسناد حسن ولا صحيح بل ولا ضعيف يستأنس به ويعتضد به وإنما نقل هذا وأمثاله كما تنقل الإسرائيليات التي كانت في أهل الكتاب وتنقل عن مثل كعب ووهب وابن إسحاق ونحوهم ممن أخذ ذلك عن مسلمة أهل الكتاب أو غير مسلمتهم أو عن كتبهم كما روى أن عبد الله بن عمرو وقعت له صحف يوم اليرموك من الإسرائيليات فكان يحدث منها بأشياء ويكفيك أن هذا الحديث ليس في شئ من دواوين الحديث التي يعتمد عليها لا في الصحاح كالبخاري ومسلم وصحيح أبن خزيمة وأبي حاتم بن حبان وابن منده والحاكم ولا في المستخرجة على الصحيح لأبي عوانة وأبي نعيم ومستخرج البرقاني والإسماعيلي ولا في السنن ك سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه ولا في الجوامع ك جامع الترمذي وغيره ولا في المسانيد ك مسند أحمد ونحوه ولا في المصنفات ك موطأ مالك ومصنف عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شية ووكيع ومسلمة ولا في كتب التفسير المروية بالأسانيد التي يميز فيها بين المقبول والمردود ك تفسير عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم وابن أبي شيبة وبقي بن مخلد ونحوهم وتفسير ابن أبي حاتم وابن داود ومحمد بن جرير وأبي بكر بن المنذر وابن مردويه ، وقد جمع غير واحد من الحفاظ

قصة آدم ومن أجمعهم أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه الكبير فإنه روى عامة ما رواه الناس ولم يذكر هذا وإنما ذكر هذا وأمثاله من يجمع الموضوعات الكثيرة والأكاذيب العظيمة مثل مصنف كتاب وسيلة المتعبدين الذي صنفه الشيخ عمر الموصلي ومثل تنقلات الأنوار للبكري الذي فيه من الكذب والأكاذيب مما لا يخفى على فطن لبيب ومثل القاضي عياض بن موسى البستي مع علمه وفضله ودينه أنكر العلماء عليه كثيرا مما ذكره في شفائه من الأحاديث والتفاسير التي يعلمون أنها من الموضوعات والمناكير مع أنه قد أحسن فيه وأجاد بما فيه من تعريف حقوق خير العباد وفيه من الأحاديث الصحيحة والحسان ما يفرح به كل من عنده إيمان.

وإذا كان تفسير الثعلبي وصاحبه الواحدي ونحوهما فيها من الغريب الموضوع في الفضائل والتفسير ما لم يجز معه الاعتماد على مجرد عزوه إليها فكيف بغيره كتفسير أبي القاسم القشيري و أبي الليث السمرقندي وحقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي الذي ذكر فيه عن جعفر و نحوه ما يعلم أنه من أعظم الكذب مع أن هؤلاء المصنفين أهل صلاح و دين وفضل و زهد و عبادة و لكنهم كما قال مالك أدركت في هذا المسجد سبعين شيخا كل له فضل و صلاح و دين ولو ائتمن أحدهم على بيت مال لأدى فيه الأمانة يقول أحدهم حدثني أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نأخذ عن أحد منهم شيئا و كان ابن شهاب يأتينا وهو شاب فنزدحم على بابه لأنه كان يعرف هذا الشأن.

وقال أيوب السختياني إن من جيراني لمن أرجو بركة دعائه في السحر ولو شهد عندي على حزمة بقل لم أقبله.

و سئل عن بعضهم فقال رجل صالح و للحديث رجال يعرفون به وللدواوين حساب و كتاب .

و قد روى أبو بكر الآجري و ابن الجوزي آثارا في أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوبا على ساق العرش و على أبواب الجنة وهذا ممكن فإنه قد ثبت عن ميسرة قال قلت يا رسول الله متى كنت نبيا وفي رواية متى كتبت نبيا قال و آدم بين الروح و الجسد و في مسند أحمد و غيره بإسناد حسن عن العرباض بن سارية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين و إن آدم لمنجدل في طينته سأنبئكم بأول أمري دعوة أبي إبراهيم و بشرى عيسى و رؤيا أمي رأت حين ولدتني كأنها خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وفي حديث أبي هريرة سئل النبي صلى الله عليه وسلم متى وجبت لك النبوة قال بين خلق آدم و نفخ الروح فيه رواه الترمذي و حسنه ففي هذه الأحاديث أن الله كتب اسمه بعد خلق آدم و قبل نفخ الروح فيه و أما ما يرويه كثير من الجهال و الاتحادية وغيرهم من أنه قال كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين و آدم لا ماء و لا طين فهذا مما لا أصل له لا من نقل ولا من عقل فإن أحدا من المحدثين لم يذكره و معناه باطل فإن آدم عليه السلام لم يكن بين الماء و الطين قط فإن الطين ماء و تراب و إنما كان بين الروح و الجسد ثم هؤلاء الضلال يتوهمون أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حينئذ موجودا و أن ذاته خلقت قبل الذوات و يستشهدون على ذلك بأحاديث مفتراه مثل حديث فيه أنه كان نورا حول العرش فقال يا جبريل أنا كنت ذلك النور و يدعي أحدهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحفظ القرآن قبل أن يأتيه به جبريل و المقصود هنا أن الله سبحانه و تعالى كتبه نبيا بعد خلق آدم قبل نفخ الروح فيه وهو

موافق لما أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك إلى آخره بين فيه خلق الجنين و تنقله من حال إلى حال فناسب هذا أنه بين خلق آدم و نفخ الروح فيه تكتب أحواله و من أعظمها كتابة سيد ولده و إذا كان هذا ثابتا أمكن أن يكتب اسمه كما رواه بالإسناد لكن الجزم بثبوته يحتاج إلى دليل يثبت بمثله فما علمناه قلناه وما لم نعلمه أمسكنا عنه و الرب تعالى قد قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة و عرشه على الماء قد علمهم و ما هم عاملون ثم أبرزهم في أحايين قدرها فكل يوم هو في شؤون يبديها لا شؤون يبتديها وقد بسط الكلام على هذا في مواضع فما ذكره البكري في قصة آدم من توسله فليس له أصل ولا نقله أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصلح للاعتماد ولا للاعتضاد ولا للاستشهاد فإن من الأحاديث الضعيفة ما يستشهد به و يعتبر كأحاديث ابن لهيعة و إبراهيم الهجري بل و لا له إسناد معروف عن أحد من الصحابة ولا التابعين الذين يأثرون ما يذكرونه من مثل هذا عن الصحابة ليقال مثل هذا لا يقولونه إلا توقيفا و مما يبين كذب هذا أن الله سبحانه و تعالى قال فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعا فأخبر أنه تاب عليه بالكلمات التي تلقاها منه وقد قال تعالى قالا ربنا ظلمنا أنفسنا الآية فأخبر أنه أمرهم بالهبوط عقب هذه الكلمات و أخبر أنه تاب عليه عقب الكلمات و أمره بالهبوط فكان أمره بالهبوط عقب الكلمات التي تلقاها منه وهي قولهما ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين أو كلمات تشبه هذه الكلمات ذكر ذلك طائفة كثيرة من المفسرين و من ذكر أن الكلمات التي تلقاها من ربه غير هذه لم يكن معه

حجة في خلاف ظاهر القرآن   وقد ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب التوبة في هذه الكلمات أشياء كثيرة كلها تدور على ما ذكره الله في كتابه من قول آدم و حواء ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين   و أيضا فإن قولهما ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا يتضمن الإقرار و الاستغفار   و من هو دون آدم إذا أقر بذنبه و استغفر منه غفر له كما في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله و توبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه و تاب تاب الله عليه   وقال تعالى من يعمل سوء أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما   و كذلك الآية التي في آل عمران وهو الذي إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهو يعلمون   و إذا حصلت مغفرة بالتوبة حصل المقصود بها لا بغيرها   و قد ثبت في الصحيح عن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله و أن التوبة تهدم ما كان قبلها   و أيضا فلو كان آدم قد قال هذا لكانت أمة محمد أحق به منه بل كان الأنبياء من ذريته أحق به   وقد علم كل عالم بالآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر أمته به و لا نقل عن أحد من الصحابة الأخيار ولا نقله أحد من العلماء الأبرار فعلم أنه من أكاذيب أهل الوضع و الاختلاق الذين وضعوا من الكذب أكثر مما بأيدي المسلمين من الصحيح لكن الله فرق بين الحق و الباطل بأهل النقد العارفين بالنقل علماء التعديل و التجريح   و هذا من جنس ما يرويه بعض العامة إذا سألتم الله فسألوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم وهو كذب موضوع من الأحاديث المشينات التي ليس لها زمام ولا خطام   قال الإمام أحمد للناس

أحاديث يتحدثون بها على أبواب دورهم ما سمعنا بشيء منها وقد حرم الله علينا أن نقول عليه ما لم نعلم و القول على رسوله صلى الله عليه قول عليه لأن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وسلم من أمر فالله أمرنا به فلو كان قد قاله لكنا مأمورين به ولا يجوز أن نقول إن الله أمرنا ما لم نعلم أن الله أمرنا به فكيف إذا لم يذكره عالم ولا عارف فكيف إذا كان أهل المعرفة بالحديث يقطعون بأنه كذب موضوع و العلم بذلك علم مسلم لأهله لهم فيه طرق و معارف يختصون بها كما يختص علماء الأحكام بالعلم بطرقها و لهذا كان أحمد بن حنبل يعطي كل ذي حق حقه كان يعرف ليحيى بن معين معرفته بالفن الأول و يقدمه في معرفة الرجال و يكرمه و يعظمه و كان يحيى يتكلم في الشافعي بكلام ليس بمستقيم حتى أنه أخذ كلامه في قتال البغاة فجاء به إلى أحمد منكرا على الشافعي بعض ما فيه من ذكر قتال البغاة و إدخال ذكر قتال علي و طلحة و الزبير فيه فقال له وهل يمكنه أن يقول في هذا المقام إلا هذا و أظنه قال له لا تتكلم فيما لا تحسن أو نحوه من الكلام الذي فيه إنكار على يحيى لأجل إنكاره على الشافعي في طرق الأحكام التي كان الشافعي أعلم بها منه و إن كان يحيى أعلم بالرجال من الشافعي و كلام يحيى بن معين و البخاري ومسلم و أبي حاتم و أبي زرعة و النسائي و أبي أحمد بن عدي والدارقطني و أمثالهم في الرجال و صحيح الحديث و ضعيفه هو مثل كلام مالك والثوري و الأوزاعي و الشافعي و أمثالهم في الأحكام و معرفة الحلال من الحرام وفي الأئمة من هو إمام مع هؤلاء و هؤلاء مشارك للطائفتين و إن كان بأحد الصنفين و أكثر أئمة الحديث و الفقه كمالك و الشافعي و أحمد و إسحاق بن راهويه و أبي عبيد و كذلك الأوزاعي و الثوري و الليث هؤلاء و كذلك لأبي يوسف صاحب

أبي حنيفة و لأبي حنيفة أيضا ما له من ذلك ولكن لبعضهم في الإمامة في الصنفين ما ليس للآخر وفي بعضهم من ضعف المعرفة بأحد الصنفين ما ليس في الآخر فرضي الله عن جميع أهل العلم و الإيمان   و نقول ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم   و أما قوله إن هذا قد رواه بصيغ مختلفة من المفسرين و المحدثين إلى آخره فما أدري من أيهما أعجب من تكثيره لمن رواه كأنهم من الحفاظ الكبار أو من سكوته عن مقابلتهم بالرد و الإنكار إذ مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عمن هو عارف بطرق الحديث مميز بين الصحيح و الضعيف   و مثل هذا لا يرويه إلا أحد الرجلين رجل لا يميز بين الصحيح و الضعيف و الغث و السمين وهم جمهور مصنفي السير و الأخبار و قصص الأنبياء كالثعالبي و الواحدي والمهدوي و الزمخشري و عبدالجبار بن أحمد و علي بي عيسى الرماني وأبي عبدالله ابن الخطيب الرازي و أبي نصر ابن القشيري و أبي الليث السمرقندي و أبي عبد الرحمن السلمي و الكواشي الموصلي و أمثالهم من المصنفين في التفسير فهؤلاء لا يعرفون الصحيح من السقيم ولا لهم خبرة بالمروي المنقول ولا لهم خبرة بالرواة النقله بل يجمعون فيما يروون بين الصحيح و الضعيف ولا يميزون بينهما لكن منهم من يروي الجميع ويجعل العهدة على الناقل كالثعلبي و نحوه ومنهم من ينصر قولا أو جملة إما في الأصول أو التصوف و الفقه بما يوافقها من صحيح أو ضعيف و يرد ما يخالفها من صحيح و ضعيف   و أما باب فضائل الأعمال و الأشخاص والأماكن و الزمان و القبور فباب اتسع فيه الكذب و البهتان   و أما رجال التفسير القدماء فمنهم الإمام المتفق عليه كمجاهد الذي قال عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقفه عند كل آية و

أسأله عنها وقال الثوري إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به وعلى تفسيره يعتمد البخاري و الشافعي و كذلك تفسير طاووس و سعيد بن جبير و عطاء بن أبي رباح و نحوهم من التابعين فإنهم بهذا الشأن من أعلم الناس و كذلك أصحاب ابن مسعود كعلقمة و الأسود و عبيدة السلماني و غيرهم و منهم من إسناده في التفسير عن ابن عباس منقطع وهو في نفسه ثقة كالسدي الكبير و الضحاك فإن الضحاك لم يصح سماعه من ابن عباس و السدي جمع ما ذكره من التفسير الذي ذكره عن التابعين كما جمع ابن إسحاق السيرة و علي بن أبي طلحة الوالبي لم يسمع من ابن عباس و قتادة ثقة حافظ في نفسه ورواية معمر عنه صحيحة و إن كان مالك أنكر ذلك لأجل القدر و أما الكلبي و السدي الصغير فمتروكان و كذلك مقاتل بن سليمان بخلاف مقاتل بن حيان فإنه ثقة وأصحاب ابن عباس الأخصاء الذين رووا عنه ما فسره من القرآن وما رواه من الحديث وما نقلوه عنه في سائر العلوم الحديث والفقه والتفسير و شرح الغريب و غير ذلك سعيد بن جبير وطاووس بن كيسان و مجاهد ابن جبر و عكرمة مولاه و عمرو بن دينار وجابر بن زيد أبو الشعثاء و عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فهؤلاء هم المخصوصون به و بطريقهم انتشر علمه و أما التفاسير المضافة إليه كالتفسير الذي يرويه جويبر بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس فجويبر ضعفه علي بن المديني ويحيى بن سعيد القطان وقال أحمد لا يشتغل بحديثه و قال يحيى بن سعيد الخرساني البلخي لا يلتفت إليه و قال علي بن الجنيد والدارقطني متروك و الضحاك لم يسمع من ابن عباس حرفا واحدا وتفسيرآخر يرويه عبيد الله بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس و يقال إن عبيدالله هذا في الوهن و الضعف أنزل من جويبر و تفسير آخر يرويه

محمد بن سعد العوفي عن آبائه عن عطية العوفي عن ابن عباس و عطية بن سعد ضعيف تكلم الناس فيه   و تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال أحمد علي بن أبي طلحة ضعيف ولم يسمع من ابن عباس شيئا وتفسير يرويه محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح باذام عن ابن عباس والكلبي كذاب و باذام ضعيف ولم يسمع من ابن عباس شيئا   قال عبد الصمد بن الفضل سئل أحمد عن تفسير الكلبي فقال كذب فقيل له أفيحل النظر فيه قال لا   و قال عبدالله بن أحمد سمعت أبي يقول ترك عبدالرحمن بن مهدي أبا صالح باذام و كذلك ضعفه سفيان و غيره وكان الشعبي يمسك بأذنه ويقول ويلك أنت لا تحفظ القرآن و تفسر القرآن وكان مجاهد ينهى عن تفسيره قاله البخاري   وقال حبيب بن أبي ثابت كنا نسمي أبا صالح دروع زن أي كذابا يكذب   وقال الإمام أحمد ثلاث علوم ليس لها أصول المغازي والملاحم والتفسير وفي لفظ ليس لها أسانيد   ومعنى ذلك أن الغالب عليها أنها مرسلة و منقطعة فإذا كان الشيء مشهورا عند أهل الفن قد تعددت طرقه فهذا مما يرجع إليه أهل العلم بخلاف غيره   و أما تفاسير تابع التابعين كقتادة ومعمر وسفيان الثوري و ابن أبي عروبة وابن جريج وغيرهم ممن صنف التفاسير فإنما يذكرون من أصولهم ما سمعوه من شيوخهم عن الصحابة و التابعين   و قد صنف في تفاسير الصحابة والتابعين و تابعيهم كتب كثيرة يذكرون فيها ألفاظهم بأسانيدها مثل تفسير وكيع وعبدالرزاق وعبد ابن حميد وآدم ابن أبي إياس وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه و أبي بكر بن أبي شيبة و بقي بن مخلد وسنيد ودحيم وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن جرير وأبي بكر بن داود ومن هؤلاء من لا يذكر شيئا عن مقاتل والكلبي   وعامة الكتب تحتاج إلى نقد و تمييز

كالمصنفات في سائر العلوم من الأصول و الفروع و غير ذلك فإن الفقهاء قد وضعوا في الفقه أشياء كثيرة من الموضوعات والضعاف أما جمهور المصنفين في الأخبار والتواريخ والسير والفتن من رجال الجرح والتعديل منهم من هو في نفسه متهم أو غير حافظ كأبي مخنف لوط بن يحيى و هشام بن محمد السائب الكلبي و إسحاق بن بشر و أمثالهم من الكذابين بل الواقدي خير من ملء الأرض مثل هؤلاء وقد علم ما قيل فيه ومحمد بن سعد كاتبة ثقة لكن ينظر عمن نقل و كذلك أبو الحسن المدائني و أمثاله و إن سلموا من الطعن فيهم فليسوا من علماء الجرح والتعديل حتى يكون ما رووه و لم ينكروا مقبولا و إنما العالمون بالجرح والتعديل هم علماء الحديث وهم نوعان منهم من لم يرو إلا عن ثقة عنده كمالك و شعبة و يحيى ين سعيد و عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل و كذلك البخاري و أمثاله و منهم من يروي عن الثقة و غيره للمعرفة ولما عنده من التمييز كالثوري و غيره و الذين جمعوا المنقولات فيهم من يمكنه التمييز بين الصحيح و الضعيف في الغالب كالدارقطني وأبي نعيم والخطيب والبيهقي وابن ناصر و ابن عساكر و أبي موسى المديني و ابن الجوزي و أمثالهم لكن قد يروون في كتبهم الغرائب المنكرات و الأحاديث الموضوعات للمعرفة بها وكما يروى عن أحمد أنه قال إذا سمعت أهل الحديث يقولون هذا الحديث فائدة فاعلم أنه غريب منكر يعني أنهم يستفيدون غرائب الحديث كما يستفيد الفقهاء و نحوهم غرائب الأقوال و الطرق و الوجوه و إن كانت وجوها سودا و أبو نعيم يروي في الحلية في فضائل الصحابة وفي الزهد أحاديث غرائب يعلم أنها موضوعة و كذلك الخطيب وابن الجوزي وابن عساكر وابن ناصر و أمثالهم والدارقطني صنف سننه ليذكر فيها غرائب

السنن وهو في الغالب يبين حال ما رواه وهو من أعلم الناس بذلك و البيهقي يعزو ما رواه إلى الصحيح في الغالب وهو من أقلهم استدلالا بالموضوع لكن يروي في الجهة التي ينصرها من المراسيل و الآثار ما يصلح للاعتضاد ولا يصلح للاعتماد ويترك في الجهة التي يضعفها ما هو أقوى من ذلك الإسناد وهم فيما يقولونه من أصدق الناس و أثبتهم لكن الشأن في من قبلهم من الإسناد فإنهم كثيرا ما يتركون التمييز فيه بخلاف الأئمة الكبار الذين يعتمدون على الحديث و يحتجون به فيما بينهم و بين الله تعالى كمالك و الشافعي و أحمد و إسحاق وعبدالرحمن بن مهدي و يحيى بن سعيد والبخاري وأبي داود فإنهم يحررون الكلام في المتن و الإسناد والله الهادي إلى سبيل الرشاد فإذا عرفت ذلك فلا يخلو ما رواه إما أن يكون من جنس ما رواه صاحب الفردوس شهردار الديلمي أو الشيخ عمر الملا صاحب وسيلة المتعبدين أو البكري صاحب تنقلات الأنوار و ابن سبع الذي له مصنف كبير في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم و مصنف صغير في كرامات الأولياء وأمثال هؤلاء ممن في كتابه من الكذب ما لا يحصيه إلا الله فهل يجوز الاعتماد على ما يرويه هؤلاء أو يكون أرفع من هذا و إن كان فيها من الصدق ما لا يحصيه إلا الله ك تفسير الثعلبي والواحدي والشفا للقاضي عياض وتفسير أبي الليث والقشيري مما فيه ضعف كثير وإن كان الغالب عليه الصحيح أو يكون من الحفاظ كأبي نعيم والخطيب وابن ناصر وأبي موسى وابن الجوزي وعبد الغني وابن عساكر ونحوهم فهؤلاء سكوتهم عن الإنكار في كثير مما يروونه لا يدل على الصحة عندهم باتفاق أهل الحديث

وأما الأولون فهم لا يعرفون الصحيح من السقيم فسكوتهم عن الإنكار سكوت عموم المؤمنين الذين لا يعرفون حقائق الدين لا يميزون بين السنة

والبدعة غير الإنكار على ما يرونه ويسمعونه من الأقوال والإعمال وإذا كان الراوي لهذا وأمثاله لا يخرج عن أن يكون غير عالم بهذا بما ينكره أو يكون عادته رواية هذا وأمثاله من غير بيان لعادة معروفة بينهم لم يكن لهذا فيما ذكره حجة   وأيضا فعلماء الدين أكثر ما يحررون النقل فيما ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم لأنه واجب القبول أو فيما ينقل عن الصحابة و أما ما ينقل من الإسرائيليات و نحوها فهم لا يكترثون بضبطها ولا بأحوال نقلها لأن أصلها غير معلوم و غايتها أن تكون عن واحد من علماء أهل الكتاب أو من أخذه عن أهل الكتاب لما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوهم و إما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم   فإذا كنا قد نهينا عن تصديق هذا الخبر و أمثاله مما يؤخذ عن أهل الكتاب لم يجز لنا أن نصدقه إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه مثل ما أخبرنا به نبينا عن الأنبياء و عن أممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الاحتراز في نقله فهذا هذا   وأعجب من هذا قوله إن نوحا وإدريس وأيوب وجماعة من الأنبياء توسلوا به فمثل هذا لا يجوز لمسلم أن يبني دينه الذي يكفر به من خالفه على مثل هذا النقل الذي لا يعتمد عليه من يدري ما يقول   ومعلوم أن ما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم أضبط و أتم و أكمل وهو علينا أوجب و أمتنا به أعرف ولو قال قائل في زماننا قد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال كذا وفعل كذا محتجا به من غير أن يعرف ما يستند إليه من العزو والإسناد لكان قائل ذلك من أجهل الناس وأبعدهم عن طريق الرشاد دع من يستدل على تكفير غيره مما يرويه عن أولئك الأنبياء الذين قد أمرنا نبينا صلى الله عليه وسلم إذا حدثنا أهل الكتاب عنهم أن لا نصدقهم ولا نكذبهم بل مثل هذا إذا وجدناه في كتب

أهل الكتاب أو في كتب المسلمين منقولا لم يجز لنا أن نصدقه و من صدقه فقد عصى الله ورسوله ولو صح فغايته أن يكون شرع من قبلنا والناس لهم في هذه المسألة قولان مشهوران أحدهما أنه ليس شرعا لنا ما لم يرد به شرعنا فقد كان مشروعا لهم ما ليس مشروعا لنا من سجود بعضهم لبعض فإن ما جاء به نبينا من كمال التوحيد لم يجئ به نبي غيره و كذلك تحريم الإنسان على نفسه أشياء كما حرم إسرائيل على نفسه ما حرمه فإن الأمم قبلنا كانوا إذا بدلوا التوحيد و غيروا الدين بعث الله لهم نبيا يبين ما بدلوه و كتموه و نحن أخر الأمم فليس بعد نبينا نبي ينتظر وفي المأثور عن الأنبياء المتقدمين ما يدل على أن ذلك لم يكن مشروعا لهم مثل ما ذكره الحافظ أبو نعيم في كتاب الحلية في ترجمة أحمد بن أبي الحواري قال حدثنا أبي حدثنا أحمد يعني محمد ابن عمر اللبناني حدثنا الحسين يعني أبا علي الحسين بن عبدالله بن شاكر السمرقندي سمعت عبدالله بن الجلا يقول قال يوسف عليه السلام اللهم إني أتوجه إليك بصلاح آبائي إبراهيم خليلك وإسحاق ذبيحك ويعقوب إسرائيلك فأوحى الله إليه يا يوسف تتوجه إلي بنعمة أنا أنعمت بها عليهم قال أحمد فقلت لأبي سليمان الداراني كنت لبعض الأولياء قبل اليوم أشد حبا فقال إنما يتقرب إليه بحب أوليائه أولى ثم بعد منزلة تسعد القلب وقد ذكر بعض الناس في هذا الأثر أن الله قال له وأي حق لآبائك علي لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أنعم عليهم بالإيمان والنبوة كما قال تعالى بعد ذكره لهم و ثنائه عليهم أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم و إسرائيل الآية وكذلك الآية التي في النساء ومن يطع الله والرسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين 2 الآية وقال في الفاتحة اهدنا

الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم 3 وأما ما استحقوه عليه فكقوله وكان حقا علينا نصر المؤمنين 4 كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين 5 فهو سبحانه أحقه على نفسه بحكم إحسانه وفضله ووعده لا هم أحقوه عليه كالحق الذي لإنسان على من له عنده يد ولهذا ليس لأحد أن يدل على الله بصلاح سلفه فإنه ليس صلاحهم من عمله الذي يستحق به الجزاء كأهل الغار الثلاثة فإنهم لم يتوسلوا إلى الله بصلاح سلفهم وإنما توسلوا إلى الله بأعمالهم لما علموا أن الله سبحانه وتعالى يثيب العاملين على أعمالهم كما قال لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت 06 وسعى غيره ليس له كما لا تزر وازرة وزر أخرى كما قال تعالى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى إلا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وإن كان المرء قد ينتفع بسعي غيره لكنه ليس له فلا يمت ويدل بما ليس له قال الشيخ قال المعترض وقد روى أن أبا جعفر لما ناظر مالكا في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قال له مالك يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله أدب قوما قال لا ترفعوا أصواتكم س الآية وذم الآخرين فقال إن الذين ينادونك من وراء الحجرات الآية إن حرمته ميتا كحرمته حيا فاستكان لها أبو جعفر وقال يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى يوم القيامة بل استقبله واستشفع به قال الشيخ فيجاب الجواب عن هذا من وجهين أحدهما المطالبة بصحة هذه الحكاية وليس معه ولا مع من ينقلها بها إسناد صحيح ولا ضعيف وإنما غايته أن يعزوها إلى الشفا أو إلى من نقلها منه وكل عالم بالحديث يعلم أن في هذا الكتاب من الأحاديث والآثار ما ليس له أصل ولا يجوز الاعتماد عليه فإذا قال

القاضي عياض ذكره فلان في كتابه فهو الصادق في خطابه وإذا لم يذكره من أين نقله لم نتهمه ولكن نتهم من فوقه وقد رأيناه ينقل من كتب فيها كذب كثير وهو صادق في نقله منها لكن ما فوقه لا يجوز الاعتماد عليهم الوجه الثاني أن يقال هذه الحكاية كذب بلا ريب من وجوه منها أنها مخالفة لمذهب مالك ومذهب سائر الأئمة فإنهم متفقون على أن من سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أراد الدعاء فإنه يستقبل القبلة كما روى ذلك عن الصحابة وتنازعوا وقت السلام عليه هل يستقبل القبلة أو القبر على قولين فقال أبو حنيفة يستقبل القبلة أيضا وقال غيره يستقبل القبر وقت السلام عليه وأما وقت الدعاء فما أعلم إماما خالف في أنه يستقبل القبلة بل الأئمة متفقون على أن قبلة المسلمين التي يستقبلونها في جميع أدعيتهم وأمكنتهم هي الكعبة ويستحب لكل من دعا الله أن يستقبل الكعبة حيث كان وأين كان كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبلها فيستقبل وقت الذكر والدعاء بعرفة ومزدلفة وبين الجمرات وعلى الصفا والمروة وعقب الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وغيره وما جعل أحد من الأئمة قبر أحد من الأنبياء قبلة للدعاء وإنما يستقبل قبورهم أهل الجهل عند عباداتهم ومن هؤلاء الغلاة من يستقبل قبورهم ويصلي إليها وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها ومنهم من يستقبل قبر شيخه وقت الصلاة ويستدبر الكعبة ويقول هذا قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة وهذا كفر صريح يوجب استتابة قائله مع أنه يفعله طائفة من الزهاد والعباد وبعضهم يسجد لقبورهم وكذلك قصد قبورهم للصلاة والدعاء بدعة وقد ثبت عن مالك وغيره من الأئمة أنهم جعلوا ذلك من البدع التي لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين

فعلم أن هذا كذب على مالك مخالف لمذهبه كما كذبوا عليه أنه كان يأخذ طنبورا يضرب به ويغني لما كان في المدينة من يغني حتى إن أكثر المصنفين في إباحة السماع كأبي عبدالرحمن السلمي والقشيري وأبي حامد ومحمد بن طاهر المقدسي وغيرهم يذكرون إباحته عن مالك وأهل المدينة وهو كذب فإنه قد علم بالتواتر من مذهبه النهي عن ذلك حتى قال إسحاق بن الطباع سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال إنما يفعله عندنا الفساق   ومنها أن مالكا من قوة متابعته للسنة كره أن يقال زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم وهذا مما لا يستريب أحد في ثبوته عنه مع أن لفظ زيارة القبور في الجملة مما جاءت به السنة في غير قبره كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن فزوروا القبور فإنها تذكر الموت   والأحاديث في ذلك كثيرة ثم بسط الشيخ الكلام على ذلك   وأما ما ذكره من أن أهل المدينة شكوا إلى عائشة فأمرتهم أن يعملوا من قبره كوة إلى السقف حتى لا يكون بينه وبين السماء حائل ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل وتفتقت شحما فسمي عام الفتيق فقد ذكر هذا فيما أظن محمد بن الحسن بن زبالة فيما صنفه في أخبار المدينة   وجوابه من وجهين   أحدهما أن هذا محمد بن زبالة ضعيف لا يحتج به والثابت عن الصحابة باتفاق أهل العلم أنهم كانوا إذا استسقوا دعوا الله إما في المسجد وإما في الصحراء وهذا الاستسقاء المشروع باتفاق أهل العلم فإنهم اتفقوا على دعاء الله واستغفاره   واختلفوا هل يصلى للاستسقاء على قولين وجمهورهم على أنه يصلى له وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد وأما أبو

حنيفة فلم يعرف الصلاة في الاستسقاء والجمهور عرفوا ذلك بما ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في الاستسقاء ركعتين والصحابة في زمن عمر وغيره صلوا واستشفعوا بالعباس وغيره ولم يكشفوا عن قبره ولو كان مشروعا لما عدلوا عنه وهذا العلم العام المتفق عليه لا يعارض بما يرويه ابن زبالة وأمثاله ممن لا يجوز الاحتجاج به ولو قال عالم يستحب عند الاستسقاء أو غيره أن يكشف عن قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء والصالحين لكان مبتدعا بدعة مخالفة للسنة المشروعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه ونحو هذا ما روى أن أهل القسطنطينية كانوا إذا أجدبوا يستسقون بقبر أبي أيوب الأنصاري وقد روي أن أهل تستر كانوا يفعلون ذلك بقبر دانيال وأن أبا موسى كتب عمر في ذلك فكتب إليه عمر إذا كان النهار فاحفر ثلاثة عشر قبرا ثم اجعله في أحدها ليخفى على الناس وهذا قد رويناه في كتاب المغازي لابن إسحاق من رواية يونس بن بكير إلى أبي العالية وذكره البيهقي في كتاب شعب الإيمان وذكره غيره وهذا من فعل أهل الكتاب لا من فعل المسلمين فليس فيه حجة فلا يحتج به محتج وأيضا فحجرة عائشة كان منها ما هو مكشوف لا سقف له كما روي عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلى العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد ولم تزل كذلك مدة حياة عائشة فكيف يحتاج أن يفتح في سقفها كوة إلى السماء فإن قيل فتحت الكوة في قبل الحجرة محاذية للقبر فهذا كذب ظاهر فإن الحجرة لم يكن لها هناك كوة ينزل منها من ينزل لكنس الحجرة وإنما كان هذا بعد موت عائشة في أيام عمرت الحجرة الثاني أن هذا الفعل ليس حجة على محل النزاع سواء أكان مشروعا أو لم

يكن فإن هذا استنزال للغيث على قبره والله تعالى ينزل رحمته على قبور أنبيائه وعباده الصالحين وليس في ذلك سؤال لهم بعد موتهم ولا طلب ولا استغاثة بهم والاستغاثة بالميت والغائب سواء كان نبيا أو وليا ليس مشروعا ولا هو من صالح الأعمال إذ لو كان مشروعا أو حسنا من العمل لكانوا به أعلم وإليه أسبق ولم يصح عن أحد من السلف أنه فعل ذلك فكلام هؤلاء يقتضي جواز سؤال الميت والغائب وقد وقع دعاء الأموات والغائبين لكثير من جهال الفقهاء والمفتين حتى لأقوام فيهم زهد وعبادة ودين ترى أحدهم يستغيث بمن يحسن به الظن حيا كان أو ميتا وكثير منهم تتمثل له صورة المستغاث به وتخاطبه وتقضي بعض حوائجه وتخبره ببعض الأمور الغائبة ويظن الغر أنه المستغاث به أو أن ملكا جاء على صورته وإنما هي شياطين تمثلت له به وخيالات باطلة فتراه يأتي قبر من يحسن به الظن إن كان ميتا فيقول يا سيدي فلان أنا في حسبك أنا في جوارك أنا في جاهك قد أصابني كذا وجرى على كذا ومقصوده قضاء حاجته إما من الميت أو به ومنهم من يقول للميت اقض ديني واغفر ذنبي وتب على ومنهم من يقول سل لي ربك ومنهم من يذكر ذلك في نظمه ونثره ومنهم من يقول يا سيدي الشيخ فلان أو يا سيدي رسول الله نشكو إليك ما أصابنا من العدو وما نزل بنا من المرض وما حل بنا من البلاء ومنهم من يظن أن الرسول أو الشيخ يعلم ذنوبه وحوائجه وإن لم يذكرها وأنه يقدر على غفرانها وقضاء حوائجه ويقدر على ما يقدر عليه الله ويعلم ما يعلمه الله وهؤلاء قد رأيتهم وسمعت هذا منهم ومن شيوخ يقتدي بهم ومفتين وقضاة ومدرسين ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد من السلف ولا شرع الله ذلك ولا رسوله ولا أحد من الأئمة ولا مع من يفعل ذلك حجة شرعية أصلا بل من فعل ذلك كان شارعا من الدين ما

لم يأذن به الله فإن هذا الفعل منه ما هو كفر صريح ومنه ما هو منكر ظاهر سواء قدر أن الميت يسمع الخطاب كما إذا خوطب من قريب أو قدر أنه لا يسمعه كما إذا خوطب من بعيد فإن مجرد سماع الميت للخطاب لا يستلزم أنه قادر على ما يطلب الحي منه وكونه قادرا عليه لا يستلزم أنه شرع لنا أن نسأله ونطلب منه كل ما يقدر عليه فليس لنا في حياة الرسل أن نسألهم كل ما يمكنهم فعله بل ولا نسأل الله تعالى كل ما يمكنه فعله بل الدعاء عبادة شرعية فكيف يجوز أن نسألهم ذلك بعد مماتهم وليس لنا أن نسألهم كل ما يقدر الله عليه من المفعولات ليسألوا ربهم إياه كما سأل قوم موسى موسى أن يريهم الله جهرة وسألوا المسيح إنزال المائدة وسألوا صالحا الناقة وسألوا الأنبياء الآيات فلو قال قائل سؤال الغائب حيا وميتا كسؤال الشاهد فإن الأنبياء والأولياء يسمعون خطاب الغائب البعيد ويسمع أحدهم خطاب الناس البعيدين له قلنا هذا محال في العادة المعروفة وإذا وقع ذلك في بعض الصور كان من باب خرق العادة والعادة قد تخرق بأن يسمع الأدنى خطاب الأعلى كما سمع سارية خطاب عمر يا سارية الجبل يا سارية الجبل ويجوز خرق العادة بالعكس لكن إثبات هذا في حق معين لا يكون إلا بحجة تدل على وقوع ذلك في حقه فإن قال إن النبي صلى الله عليه وسلم يسمع الخطاب البعيد والقريب قيل ليس في هذا الحديث المعروف ما يدل على التسوية بين القريب والبعيد في سمع خطابه بل الحديث يدل على نقيض ذلك ففي السنن حديث أوس بن أوس الذي رواه أبو داود وغيره ورواه ابن حبان في صحيحه والدارقطني في سننه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه

فإن صلاتكم معروضة على قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال يقولون بليت قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء والحديث الذي رواه أحمد في مسنده وأبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني والحديث الذي رواه النسائي وابن حبان عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام وروى أبو يعلى الموصلي في مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبي بكر الحنفي حدثنا عبيدالله بن نافع حدثنا العلاء بن عبدالرحمن قال سمعت الحسين بن علي يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا ولا تتخذوا بيتي عيدا صلوا علي وسلموا فإن صلاتكم وسلامكم يبلغني أينما كنتم وروى الروياني في مسنده والبزار وغيرهما عن نعيم بن ضمضم عن عمران بن الحميري قال قال لي عمار بن ياسر قال نبي الله صلى الله عليه وسلم يا عمار إن لله ملكا أعطاه الله إسماع الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت إلى يوم القيامة فلا يصلي علي أحد صلاة إلا سماه باسمه واسم أبيه فقال صلى عليك فلان كذا وكذا فيصلي الرب على ذلك المصلي بكل واحدة عشرا وقال أبو أحمد الزبيري حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصلي عليه صلاة إلا وهي تبلغه يقول له الملك فلا يصلي عليك كذا وكذا صلاة وقال ابن وهب أخبرني عمرو بن الحراث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم أكثروا علي الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة وإن أحدا لا يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ قال قلت وبعد الموت قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فهذه الأحاديث تدل على أن الصلاة والسلام يعرضان عليه وأن ذلك يصل حيثما كنا وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أحد يسلم على إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام وهذا الحديث هو الذي اعتمد عليه العلماء كأحمد وأبي داود وغيرهما في السلام عليه عند قبره وزيارة قبره إذ لم يكن معهم سنة يستندون إليها في زيارة قبره إلا هذا الحديث والأحاديث التي رويت في زيارة قبره ضعيفة بل موضوعة وأكثرها وضعت بعد الإمام أحمد وأمثاله فهذه النصوص التي ذكرناها تدل على أنه يسمع سلام القريب ويبلغ سلام البعيد وصلاته لا انه يسمع ذلك من المصلي والمسلم وإذا لم يسمع الصلاة والسلام من البعيد إلا بواسطة فإنه لا يسمع دعاء الغائب واستغاثته بطريق الأولى والأحرى والنص إنما يدل على أن الملائكة تبلغه الصلاة والسلام ولم يدل على أنه يبلغه غير ذلك والحديث الذي فيه ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام فهم العلماء منه السلام عند قبره خاصة فلا يدل على البعيد فإن السنة إذا زار الرجل القبور مطلقا أن يسلم عليهم ويدعو لهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم وقد بسط الشيخ الكلام في هذا الموضوع بسطا طويلا ومقصوده توحيد الله سبحانه وطلب الحوائج منه والذب عن حومة الإخلاص وأن لا يسأل إلا الله ثم قال والمقصود هنا أن المعترض المحتج لم يحرر أدلته تحريرا ينفي عنها الإجمال والالتباس حتى يتبين ما فيها من الضلال

والإضلال لجميع الناس بل قال لم يزل الناس يفهمون معنى الاستغاثة بالشخص قديما وحديثا وأنه يصح إسنادها إلى المخلوقين وهذا كلام صحيح لكن يقال له لم يزل الناس يفهمون أنها طلب من المستغاث به أو طلب من غيره به والثاني لا سبيل إليه والأول لم ينازع فيه أحد إذا طلب من المستغاث ما شرع طلبه منه مما يقدر عليه إذ لا يقدر أحد على الأشياء كلها إلا الله وحده والمخلوق له حال يخصه ويليق به ثم قال الشيخ فإن هنا أربعة معاني أحدها أن يسأل الله تفريج الكربة بالمتوسل به ولا يسأل المتوسل به شيئا كما يفعله كثير ممن يتوسل بالأموات أو أن يسأل الله ويسأل المتوسل به أن يدعو كما كان الصحابة يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ثم من بعده بعمه العباس وبيزيد بن الأسود الجرشي وغيرهما والثالث أن يسأل المتوسل به أن يسأل الله له تفريج الكربة ولا يسأل الله والرابع أن يسأل المستغاث به أن يفرج الكربة ولا يسأل الله فأما الأول فهو سائل لله وحده ومستغيث به وليس مستغيثا بالمتوسل به إلا أن يريد بالاستغاثة السؤال به وأما الثاني فهو استغاثة بالله في تفريج الكربة واستغاثة بالشفيع أن يسأل الله هو توسل به أي بدعائه وشفاعته وهذا هو المشروع في الدنيا والآخرة في حياة الشفيع وسؤاله أو في حال مشاركة الشفيع له في السؤال لا في حال انفراده هو بالسؤال وكذلك الثالث إذا سأل المتوسل به أن يسأل الله كما يسأله الناس يوم القيامة فهذا لا ريب في جوازه وإن سمي استغاثة به وأما الرابع وهو أن يسأل المستغاث به تفريج الكربة فهذا استغاثة به ليس توسلا به بل المستغاث به مطلوب منه الفعل فإن لم يكن قادرا عليه لم يجز أن يطلب منه ما لا يقدر عليه فالأول سؤال به وليس استغاثة أصلا وبعض

الناس يسميه توسلا به   والثاني فيه استغاثة به وتوسل به   والثالث فيه استغاثة في سؤال الله وليس فيه سؤال به   والرابع استغاثة في تفريج الكربة لكن لا يجوز ذلك من ميت ولا غائب ولا من حي حاضر إلا فيما يقدر عليه خاصة وليس هذا هو التوسل به   والتوجه المشروع الذي كانت الصحابة تفعله إنما كان بدعائه وشفاعته ولا ريب أن من سأل الله تفريج الكربة بواسطة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته فقد استغاث به وهذا جائز كما كان الناس يفعلونه في حياته وكما يفعلونه في الآخرة في حياته أيضا ولكن هذا ليس مشروعا بعد موته ولم يفعله أحد من الصحابة بعد موته بل عدلوا عن التوسل بدعائه وشفاعته إلى التوسل بدعاء غيره من الأخيار كالعباس ويزيد بن الأسود وغيرهما فلا دين إلا ما شرعه الله ورسوله كما أنه لا حرام إلا ما حرمه   ومن ذهب إلى الاستغاثة بالموتى فقد شرع له دينا لم يؤذن له به وليس معه في الاستغاثة بهم سوى فعل بعض المتأخرين وكلامهم ممن ليس هو معدود من أهل الإجماع والاختلاف فليس معه تقليد المقلدين ولا اجتهاد المجتهدين ومن ابتدع بدعة في الدين بدون اجتهاد أهل الاجتهاد أو التقليد لأهل الاجتهاد كان من أهل الضلال والغي لا من أهل الهدى والرشاد   وأما السؤال بهم فغاية ما معه فيه قول بعض العلماء مع منازعة غيره له فيه وقد قال تعالى   فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا   وقد نص غير واحد من العلماء على أنه لا يجوز السؤال لله بالأنبياء والصالحين فكيف بالاستغاثة بهم مع أن الاستغاثة بالميت والغائب مما لا نعلم بين أئمة المسلمين نزاع في أن ذلك من أعظم المنكرات ومن كان عالما بآثار السلف علم أن أحدا منهم لم يفعل هذا وإنما

كانوا يستشفعون ويتوسلون بهم بمعنى أنهم يسألون الله لهم مع سؤالهم هم لله فيدعو الشافع والمشفوع له كما قال عمر بن الخطاب اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون وكما في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر قال ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسقي فيما ينزل حتى يجيش له ميزاب وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل وكذلك قال معاوية بن أبي سفيان لما استسقى بيزيد بن الأسود فقال اللهم إنا نستشفع أو نتوسل إليك بخيارنا يا يزيد ارفع يديك فرفع يديه ودعا ودعا الناس حتى سقوا ومنه قول الأعرابي إنا نستشفع بك على الله ومنه قول الأعمى اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ومنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم فقد تبين أن الاسترزاق والاستنصار يكون بالمؤمنين بدعائهم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واستغفارهم ومن استنصر بشخص أو استفتح به أو استسقى به لا يجب أن يكون خيرا من غيره ولا افضل منه فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من صعاليك المهاجرين وكذلك عمر ومن معه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أفضل من العباس لكن ينبغي أن يكون المستنصر به والمسترزق به له مزية على غيره من الناس بصلاح أو قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كقوله سبقك بها عكاشة وإن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة لدعوة رسول

الله صلى الله عليه وسلم له قال اللهم اجب دعوته وسدد رميته وأبو بكر وعمر أفضل منه ولم يجيء فيهما نص خاص بذلك ومثل هذه الفضائل التي للمفضول تارة تكون ثابتة للفاضل وتارة يكون له ما هو أفضل منها مثل حديث أويس القرني وقوله لعمر إن استطعت أن يستغفر لك فافعل وقد يكون الذي يستغفر له أويس أفضل من أويس وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر لما ودعه لا تنسنا من دعائك أو أشركنا في دعائك ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من عمر وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا بأس بالرقى ما لم يكن شركا فنهى عن الرقى التي فيها شرك كالتي فيها استعاذة بالجن كما قال تعالى وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والأقسام التي يستعملها بعض الناس في حق المصروع وغيره التي تتضمن الشرك بل نهوا عن كل مالا يعرف معناه من ذلك خشية أن يكون فيه شرك بخلاف ما كان من الرقى وسؤال الله بمجرد ذوات الأنبياء والصالحين غير مشروع بخلاف الطلب من الله بدعاء الصالحين وبالأعمال الصالحة فإنه جائز لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دعوا به وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا فإذا توسلنا إلى الله بالأعمال الصالحة وبدعائهم كنا متوسلين إليه بوسيلة كما قال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة فالوسيلة هي الأعمال الصالحة وأما إذا توسلنا إليهم بنفس ذواتهم لم يكن في نفس ذواتهم سبب يقتضي إجابة دعائنا ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحا ولا متواترا ولا مشهورا عن السلف ونحن إنما ننتفع باتباعنا لهم ومحبتنا لهم وهم لهم عند الله من الدرجات والمنازل أمر

يعود نفعه إليهم فإذا توسلنا إلى الله بإيماننا بنبينا ومحبته وموالاته واتباع سنته فهو من أعظم الوسائل فالتوسل به من غير متابعة له في الأعمال لا يجوز أن يكون وسيلة فإن المتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل لا بما من المتوسل به ولا بما منه فبأي شيء يتوسل ولا يجوز أن يقسم على الله بغيره من المخلوقات أصلا   وقوله تعالى واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام فعلى قراء الخفض فقط قال طائفة من السلف هو قولهم أسألك بالله وبالرحم وهذا إخبار عن سؤالهم بالرحم أي بسبب الرحم أي الرحم توجب لأصحابها بعضهم على بعض فيكون سؤالهم بالرحم كسؤال الثلاثة بأعمالهم الصالحة وكسؤالنا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ومن هذا الباب ما روى أن عبدالله بن جعفر كان إذا سأل عليا سأله بحق جعفر أعطاه وليس هذا من باب الإقسام فإن الإقسام بغير جعفر أعظم بل الباء هنا باء السبب فحقه من باب حق الرحم لأن حق ابنه عبدالله إنما وجب بسبب جعفر وحقه على علي رضي الله عنهما   ومن هذا الباب الحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الخارج إلى الصلاة اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ولكن اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت   هذا والحديث في إسناده عطية العوفي وفيه ضعف فإن كان هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو من هذا الباب لوجهين أحدهما لأن فيه السؤال لله بحق السائلين وبحق الماشين في طاعته وحق السائلين أن يجيبهم وحق الماشين أن يثيبهم وهذا حق أوجبه هو سبحانه على نفسه لا هم أوجبوه عليه فليس للمخلوق أن يوجب على الخالق تعالى

شيئا ومنه قوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة وقوله وكان حقا علينا نصر المؤمنين وكذلك حقا علينا ننجي المؤمنين وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن وفي حديث معاذ أتدري ما حق العباد على الله وفي حديث أبي ذر إني حرمت الظلم على نفسي وكل ذلك تفضلا منه ورحمة وإذا كان حق السائلين له هو الإجابة وحق العابدين له هو الإثابة فذلك سؤال له بأفعاله كالاستعاذة بنحو ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك إلى آخره فالاستعاذة بمعافاته التي هي فعله كالسؤال بإثابته التي هي فعله كما قال تعالى الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار وقوله فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار وقال إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين وقال تعالى عن الحواريين ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ونحو ذلك توسلوا إلى الله في دعائهم بالإيمان به وكان ابن مسعود يقول في السحر اللهم أمرتني فأطعتك ودعوتني فأجبتك وهذا تسحر فاغفر لي ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذي أصابهم المطر فأووا إلى الغار وانطبقت عليهم الصخرة ثم دعوا الله بأعمالهم الصالحة ففرج الله عنهم وهو ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى إذا أووا المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا إنه لا ينجيكم من هذا الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فقال رجل منهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا فنأى بي طلب شيء يوما فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلا

أو مالا فلبثت والقدح على يدي أنظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إلي فأردتها عن نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها قالت لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي وتركت الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها قال النبي صلى الله عليه وسلم وقال الثالث اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبدالله أد إلي أجري فقلت له كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق فقال يا عبدالله لا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك فاخذ ذلك كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون فهؤلاء الثلاثة سألوا الله وتوسلوا إليه بأعمال البر فالأول أخبر عن بره بوالديه برا عاليا تاما أكمل البر وأحسنه والآخر أخبر عن عفته التامة الكاملة وعن همته العالية والآخر أخبر عن أداء الأمانة على الوجه الأكمل الأتم وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا خالد بن خداش بن العجلان وإسماعيل بن إبراهيم قالا حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس قال دخلنا على رجل من الأنصار وهو مريض ثقيل فلم نبرح حتى قبض فبسطنا عليه

ثوبه وله أم عجوز كبيرة عند رأسه فالتفت إليها بعضنا وقال يا هذه احتسبي مصيبتك عند الله قالت وما ذاك مات ابني قلنا نعم قالت أحق ما تقولون قلنا نعم فمدت يدها إلى الله فقالت اللهم إنك تعلم أني أسلمت وهاجرت إلى رسولك رجاء أن تغيثني عند كل شدة ورخاء فلا تحمل علي هذه المصيبة اليوم قال فكشف الثوب عن وجهه فما برحنا حتى طعمنا معه وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب سائر ما يقدر عليه وأما المخلوق الغائب والميت فلا يطلب منه شيء يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح فمعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته ودعاؤه وشفاعته من أعظم الوسائل عند الله وأما في لغة كثير من الناس فمعناه أن يسأل الله بذلك ويقسم عليه بذلك والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات بلالا يقسم بها بحال فلا يقال أقسمت عليك يا رب بملائكتك ولا بكعبتك ولا بأنبيائك ولا بعبادك الصالحين كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء وما يذكره بعض العامة من قوله ويروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كانت لكم إلى الله حاجة فسلوه بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ولا هو في شيء من كتب الحديث وإنما المشروع الصلاة عليه في كل دعاء ومن دعا غيره كفر وقد روي في المسند و الترمذي و غيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال يا أيها الناس اذكر والله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه قال قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي قال ما شئت قلت الربع قال ما شئت وإن زدت فهو خير لك

قلت النصف قال ما شئت و إن زدت فهو خير لك قلت الثلثين قال ما شئت وإن زدت فهو خير لك قلت أجعل لك صلاتي كلها قال إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك و آخرتك وفي لفظ إذا تكفى همك و يغفر ذنبك وقوله أجعل لك من صلاتي يعني من دعائي فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء قال تعالى وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم صل على آل أبي أوفى وقالت امرأة صل علي يا رسول الله و على زوجي فقال صلى الله عليك وعلى زوجك فيكون مقصوده يا رسول الله إن لي دعاء أدعو به و أستجلب به الخير و أستدفع به الشر فكم أجعل لك منه قال ما شئت فلما انتهى إلى قوله أجعل لك صلاتي كلها قال إذا تكفي همك و يغفر ذنبك وفي الرواية الأخرى إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك و آخرتك وهذا غاية ما يدعو به الإنسان لنفسه من جلب الخيرات ودفع المضرات فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب واندفاع المرهوب كما قد بسط ذلك في مواضعه وقد ذكر علماء الإسلام و أئمة الدين الأدعية المشروعة و أعرضوا عن الأدعية البدعية وفي المسند عن جابر بن عبدالله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال حين ينادي المنادي اللهم رب هذه الدعوة القائمة و الصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضى لا سخط بعده استجاب الله له دعوته فالذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم وهو من أنفع الأمور لهم إلى ما ليس كذلك فإن الصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وقد أمر الله بها في كتابه وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم عجل هذا ثم دعاه فقال له أو لغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه والثناء عليه ثم يصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو بعد بما شاء رواه أحمد و أبو داود وهذا لفظه والنسائي والترمذي وقال حديث صحيح   وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء لا يرد بين الأذان و الإقامة   رواه أحمد و أبو داود والنسائي والترمذي وقال حديث حسن   وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما يرد على داع دعوته عند حضور النداء والصف في سبيل الله تعالى رواه أبو داود   وقد قال مالك لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها   ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك فكثير من هؤلاء الذين يعظمون القبور والمشايخ و يستغيثون بهم و يطلبون حوائجهم منهم يطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور وذلك من جنس السحر والشرك فمنهم من تطير به الشياطين في الهواء حملا له من مكان إلى مكان فتارة تذهب به إلى مكة و تارة إلى بيت المقدس و غيره من البلاد و يكون زنديقا فاجرا إباحيا تاركا للصلاة وغيرها مما أوجبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم و فرضه و يستحل المحارم التي حرمها الله و رسوله صلى الله عليه وسلم ويحلها لغيره و إنما تقترن به الشياطين و تخدمه لما فيه من الكفر والزندقة ومن الفسوق و العصيان فإذا آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم و تاب و التزم الطاعة لله و لرسوله فارقته تلك الشياطين و تلك الأحوال الشيطانية من الإخبارات و التأثيرات   وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيرا بالشام و مصر و الحجاز و اليمن و أما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها وذلك لأن ظهور هذه الأشياء من الأحوال الشيطانية التي

أسبابها الكفر والفسوق والعصيان في تلك البلاد أقوى وأظهر وظهور الإسلام والسنة وإحلاص الدين لله في أرض الشام أقوى من سائر البلاد فلهذا ضعفت هذه الأحوال الشيطانية و أنكرت إذا ظهرت فيها و إذا ظهرت ولم تنكر و لم تغير قويت واشتدت شوكتها فحيث قويت الأحوال الرحمانية الإيمانية المحمدية والتوحيد ونور القرآن و ظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية فإن سلطانها إنما يقوى و تعظم جنوده في بلاد أهل الكفر والفسوق والعصيان كبلاد جنكر خان والهند والروم وغيرها من أهل الكفر والفسوق والعصيان فبلادهم فيها مادتان مادة كفر ونفاق و فسوق و عصيان و مادة علم وإحسان وإيمان فإذا غلبت إحدى المادتين على الأخرى أهلكتها والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل الحبشة و النجشية و الطوينية والتوى ونحو ذلك من علماء المشركين و شيوخهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ويصعد أحدهم في الهواء و يخبرهم بأمور غائبة و يبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم ولا يرون أحدا يضرب به و يطوف الإناء عليهم و لا يرون من يحمله وإذا نزل بأحدهم مئة ضيف أتاهم بطعام يكفيهم ويأتيهم بألوان مختلفة مع كفرهم وذلك كله من الشياطين تأتيه به من تلك المدينة أو من غير تسوقه وهذه الأمور تكون كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الإيمان وعند التتار من هذا أنواع كثيرة ولا سيما دولة تمرخان وأتباعه فإنهم سحروا الناس سحرا لم ير مثله و أظهروا أحوالا لا حقيقة لها فوافقت قدر الله فعملت أعمالها وذلك لما ضعف الإيمان بالشام وقل نور النبوة فظهر تأثير ذلك الأحوال في الناس لضعف الدين و امتلاء القلوب من حب الدنيا وظهور مناكير معروفة وكثرة الخبث و قلة الطيب ولما كان الطيب غالبا

قويا والإسلام فاشيا ظاهرا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائما به أهله منصورون معانون وأهل الفساد و الفسوق مقهورون ذليلون كان أولئك المذكورين بينهم و بين بلاد الشام خنادق و أسوار من قدر العزيز الجبار فلا يصلون إليها وكم قد حاولوا دخولها من سنين وشهور وأيام وقد ضرب الله بينهم وبينها بسد فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا فالأحوال الشيطانية عندهم كثيرة جدا ولهذا الدجال إنما يخرج من قبلهم و بلادهم وهم أتباعه و يظهر على يديه من الأحوال الشيطانية و الأمور الزنديقية ما يحار له الناظرون وهو كافر بالله العظيم وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا الإيمان والتوحيد واتباع الرسول فتجد غالبهم ممن يعتقد الشيوخ والبله وأصحاب الأحوال الشيطانية ويأتي أحدهم إلى قبر الشيخ ويدعوه ويكشف رأسه عند قبره و يطلب حاجته منه و يستغيث به و يستنصر به وكل ذلك من ضعف الإيمان واختلاط الشرك بالقلوب ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين وزهد مع نوع جهل يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ولا يطوف طواف الإفاضة و يظن أنه حصل له بذلك عمل صالح و كرامة عظيمة من كرامات الأولياء ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان فإن مثل هذا الحج ليس مشروعا ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ومن ظن أن مثل هذا عبادة وكرامة فهو ضال جاهل ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء ولا من الصحابة ولا من أولياء الله المعروفين ذوي الكرامات يفعل بهم مثل هذا فإنهم أجل قدرا من ذلك وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطار معه من الإسكندرية إلى عرفة فرأى الملائكة تنزل فتكتب أسماء الحجاج ولم يكتبوه فقال هل كتبتموني فأعرضوا عنه فقال لهم ثانية فأعرضوا عنه فقال لهم

ثالثا فقالوا له أنت لم تحج أنت لم تحج كما حج المسلمون ولم تتعب ولم تحرم فلا ثواب لك فماذا نكتب وكان بعض الشيوخ من أهل العلم قد طلب منه بعض هؤلاء الذين تحملهم الشياطين أن يحج معهم في الهواء فقال لهم هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله و رسوله فدين الإسلام مبني على أصلين من خرج عن واحد منهما فلا عمل له ولا دين أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وعلى أن نعبده بما شرع لا بالحوادث والبدع وهو حقيقة قول لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن الإله هو الذي تألهه القلوب عبادة واستعانة و محبة وتعظيما وخوفا ورجاء وإجلالا و إكراما وهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ولا يدعى إلا الله ولا يخاف إلا الله ولا يطاع إلا الله والرسول هو المبلغ عن الله طاعته وأمره ونهيه و تحليله و تحريمه فهو واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره و نهيه ووعده ووعيده و أما إجابة الدعاء وكشف البلاء والهداية والإغناء ونحو ذلك فالله تعالى هو المتفرد بذلك الذي يسمع و يرى و يعلم السر و النجوى وهو القادر على إنزال النعم و إزالة الضر من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد أحوال عباده أو يعينه على قضاء حوائجهم والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها و يسرها فهو مسبب الأسباب التي بها يحصل ذلك و لهذا فرض سبحانه على المصلي أن يقول في صلاته إياك نعبد و إياك نستعين وقال النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يبصقن قبل وجهه فإن الله قبل وجهه ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ولكن عن يساره أو تحت قدمه وهذا الحديث في الصحيحين من غير وجه وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بائن من خلقه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته بل الحامل بقدرته للعرش و حملته وقد جعل

سبحانه العالم طبقات ولم يجعل أعلاه مفتقرا إلى أسفله فالسماء لا تفتقر إلى الهواء و الهواء لا يفتقر إلى الأرض فالعلي الأعلى رب السماوات والأرض وما بينهما أجل و أعظم و أغنى و أعلى من أن يفتقر إلى شيء بل هو الأحد الصمد وكل ما سواه مفتقر إليه وهو مستغن عن كل ما سواه وهذه الأشياء مبسوطة في غير هذا الموضع قد بين فيها التوحيد الذي بعث الله به رسله قولا وعملا   وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة لها ثغاء أو رقاع تخفق فيقول يا محمد أغثني فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك   فهؤلاء الذين بلغهم أخبر أنهم إذا استغاثوا به يوم القيامة وسألوه الشفاعة يقول لهم لا أملك لكم من الله شيئا قد أبلغتكم والله سبحانه قد وعد أهل التقوى بالتخليص من الكربات و بإحسانه إليهم برفع الدرجات قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب   وقال تعالى إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا و يكفر عنكم سيئاتكم و يغفر لكم فصل   الأحاديث التي رويت في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم كلها ضعيفة بل موضوعة وليس في السنن الأربعة منها حديث واحد فضلا عن الصحيحين ولا احتج الأئمة بشيء منها ولا رووا شيئا منها ولا مالك ولا الشافعي ولا أحمد ولا الثوري ولا الأوزاعي ولا الليث ولا أبو حنيفة ولا إسحاق بن راهويه ولا أحد من أئمة المسلمين وذلك مثل قوله من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي   ومثل ما يروون عنه أنه قال من زارني بعد مماتي كنت له شفيعا يوم القيامة   ومثل ما يروون من زارني و زار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة   فهذا الأحاديث وما أشبهها كلها كذب موضوع على النبي صلى الله عليه وسلم لم يثبت عنه

لفظ واحد في زيارة قبره ولكن روي الأولان من قد يروي الموضوعات كالبزار والدارقطني كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضع كيف يكون زائر قبره كالمهاجر إليه في حياته فإن زيارته في حياته إنما شرعت لمن يأتي و يبايعه على الإسلام والجهاد أو يهاجر إليه لطلب الآخرة أو يطلب منه العلم أو نحو ذلك من المقاصد المأمور بها في حياته التي لا يحصل شيء منها بزيارة قبره وهذه الأمور المبتدعة من الأقوال هي مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجة أو يستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس بكثير من الأموات وهو من جنس عبادة الأصنام ولهذا تتمثل لهم الشياطين على صورة الميت أو الغائب كما كانت تتمثل لعبادة الأصنام بل أصل عبادة الأصنام إنما كانت من القبور كما قال ابن عباس و غيره وقد يرى أحدهم القبر قد انشق و خرج منه الميت فعانقه أو صافحه أو كلمه ويكون ذلك شيطانا تمثل على صورتة ليضله وهذا يوجد كثيرا عند قبور الصالحين و أما السجود للميت أو للقبر فهو أعظم و كذلك تقبيله المرتبة الثانية أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت فيقصد زيارتة لذلك أو للصلاة عنده أو لأجل طلب حوائجه منه فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق أئمة المسلمين وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعا بين أئمة الدين المرتبة الثالثة أن يسأل صاحب القبر أن يسأل الله له وهذا بدعة باتفاق أئمة المسلمين وقد أخبر الله عن إخوة يوسف أنهم خروا له سجدا وكذلك سجد له أبواه وهذا السجود ليس مشروعا لنا فلا يجوز لأحد أن يسجد لأحد حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها وكذلك الذين اتخذوا مسجدا على أهل الكهف وهذه الأمة

قد نهيت عن بناء المساجد على القبور   وقد كان اليهود يستفتحون على الذين كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا صفته في التوراة يقولون اللهم انصرنا على أعدائنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وهذا كقوله إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح   والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ومنه الحديث المأثور إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أي يستنصر بهم أي بدعائهم كما قال وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم فالذي ذكره المفسرون في تفسير الآية أن اليهود كانوا يقولون اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم   وقيل إ نهم كانوا يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة   وقيل إنهم كانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم   قال ابن إسحاق في السيرة حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه زعموا أن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا أنا كنا نسمع من يهود وكنا أصحاب أوثان وهم أهل كتاب وكان لا يزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم قالوا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وكنا كثيرا ما نسع ذلك منهم فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا وعرفنا ما كانوا يتواعدون به فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا هم به ففي ذلك نزل قوله فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين   فإن اليهود لهم يعرف أنهم غلبوا العرب بل كانوا مغلوبين معهم أو كانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قريظة حلفاء الأوس وكانت النضير حلفاؤهم عبدالله بن أبي حتى أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من

حين ضربت عليهم الذلة والمسكنة لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا على غيرهم وإنما كانوا يقالون مع حلفائهم كما حالفت النضير الخزرج وحالفت قريظة الأوس قبل الإسلام والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليهم فكذبوه كما قال تعالى إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة وقال تعالى قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين وقال تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى وكان اليهود قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

وما يروونه من أن آدم دعا به أو تشفع به فهو من الأحاديث الموضوعة التي لا يبني عليه حكما شرعيا إلا جاهل بأدلة الأحكام.

وأصل ضلال المشركين أنهم ظنوا أن الشفاعة عند الله كالشفاعة عند غيره وهذا أصل ضلال النصارى أيضا قال تعالى ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون وأمثال هذا في القرآن كثير فمن ظن أن الشفاعة المعهودة من الخلق للخلق تنفع عند الله مثل أن يشفع الإنسان عند من يرجوه المشفوع إليه أو يخافه كما يشفع عند الملك ابنه أو أخوه أو أعوانه أو نظراؤه الذين يخافهم أو يرجوهم فيجب سؤالهم لأجل رجائه وخوفه منهم فيمن يشفعون به عنده وإن كان الملك أو الأمير أو غيرهما يكره الشفاعة فيمن شفعوا فيه فيشفعهم فيه

على كراهة منه ويشفعون عنده أيضا بغير إذنه فالله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه فلا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ولا يشفع أحد في أحد إلا لمن أذن الله للشفيع أن يشفع فيه فإذا أذن للشفيع شفع وإن لم يسأله الشفيع ولو سأل الشفيع الشفاعة ولهم يأذن الله له لم تنفع شفاعته كما لم تنفع شفاعة نوح في ابنه ولا إبراهيم في أبيه ولا مراجعة لوط في قومه ولا صلاة النبي صلى الله عليه وسلم على المنافقين واستغفاره لهم بل قيل له استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم   وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فيجتاحهم فأعطانيها وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها   وفيه أنه قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء لا يرد   فمن قال من المغالين والجاهلين إن لله عبادا لو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أقامها فهو مفتر كذاب فإن أفضل الخلق عنده أجاب أكثر مسائلهم مما يوافق قدره وأمره ورد بعضها فما حال من هو دونهم وما أخبر أنه سيفعله فلا بد من وقوعه فلا يقبل دعاء أحد في أن يدعه كقيام الساعة فإن أفضل أهل السماوات وأفضل أهل الأرض لو سألوه أن لا يقيم القيامة لما أجاب سؤالهم إذ قد قضى ذلك وقدره قبل أن يخلق الخلائق بخمسين ألف سنة   وإنما تقع الشفاعة وتنفع ويظهر جاه الشفيع ووجاهته عند المشفوع إليه إذا شفع فيمن أذن له أن يشفع فيه وفي إجابته سؤاله وقبول شفاعته لا أنه يقسم على الله بأحد من خلقه ولا يتوسل إليه بمجرد ذات أحد من خلقه من غير دعاء من المتوسل به ولا طاعة من المتوسل والداعي إنما ينتفع من وجهين إما بدعاء الرسول وإما بإيمان الداعي به

وطاعته ومحبته فأما إذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يدع له وهو لم يؤمن به لم ينتفع بالرسول صلى الله عليه وسلم فأبو طالب مع كفره لما كان يحوط الرسول ويمنعه شفع فيه حتى خفف عنه العذاب وقد كان في غمرة من النار فلما شفع فيه صار في ضحضاح من النار وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه ولولاه لكان في الدرك الأسفل من النار هكذا رواه مسلم في صحيحه فانتفع به مع كفره في تخفيفه عذابه بأن شفع فيه والإيمان به نافع لمن آمن و إن لم تحصل معه شفاعة فهذان السببان هما اللذان ينفعان العبد من سيد الخلق صلى الله عليه وسلم و أما مجرد توسل العبد بذاته أو إقسامه به بدون هذين السببين فلا ينفعه أصلا كما تجد أفسق الناس و أفجرهم يغالي في قبور الصالحين ويقول قبورهم هو الترياق المجرب ولم يعمل ببعض عملهم ولا حام حول حماهم و كما ينتسب بعض الناس إلى الأئمة وهم براء منه لم يتبعهم يوما من الدهر و أكثر هؤلاء قد غلب عليهم نفاق القلوب و إيمانهم ليا بألسنتهم و طعنا في الدين وقد ظن بعض من تكلم في الشفاعة على طريق الفلاسفة كابن سينا و أشباهه أن الشفاعة تنفع لتعلق الشفيع بالمشفوع وإن لم يكن هناك دعاء من الشفيع وشبه ذلك بشعاع الشمس الذي يظهر في المرآة و المرآة تطرح شعاعها على الماء والشعاع الذي على الماء يظهر فيه الحائط وأن العبد إذا تعلق بالملائكة والأنبياء كان ما ينزل عليهم من الرحمة ينزل عليه من ذلك بتوسطهم كما ينتفع أتباع المتبوع بما يحصل له من الجاه والمنزلة وهذا الذي قاله هو شر من قول المشركين وهذه هي الشفاعة التي أبطلها الله و رسوله صلى الله عليه وسلم وابن سينا ذكر هذه الشفاعة جريا على منهاج سلفه المشركين الصابئين أهل مقدونية كالإسكندر فيلبس المقدوني

ووزيره أرسطو ونحوهم من المشركين الذين كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت و كانوا أهل شرك و سحر كما هو متواتر عنهم معروف من أخبارهم والجهال يظنون أن هذا الإسكندر هو ذو القرنين المذكور في القرآن ويعظمون أرسطو و يظنون أنه كان وزير ذي القرنين وهذا من جهلهم فإن الإسكندر الذي كان وزيره أرسطو هو الإسكندر بن فيلبس المقدوني الذي يؤرخ له اليهود والنصارى وهذا كان قبل المسيح بنحو ثلاث مئة عام وهو الذي قهر الفرس ولم يصل إلى سد يأجوج ومأجوج وأما ذو القرنين المذكور في القرآن فهو من أهل الإيمان والتوحيد وقد اختلف في نبوته والصحيح أنه لم يكن نبيا وقد كان قبل هذا بمئين من السنين وهو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج وكان الله تعالى قد مكن له في الأرض و آتاه من كل شيء سببا فقهر الجبابرة و أذلهم و سار بالعدل فيما آتاه الله وفي كلام أبي حامد في المضنون به على غير أهله و نحوه ما مشى فيه على منهاج ابن سينا ولهذا اشتد نكير العلماء على أبي حامد لما في كلامه من أصول الفلاسفة الملحدين وهم بنوا الشفاعة على أصلهم الفاسد وهو أن الله عندهم لا يحدث شيئا بمشيئته و اختياره بل لا سبب للحوادث إلا حركة الفلك فلهذا لم يثبتوا لله تعالى إجابة سائل ولا إحداث أمر وقد بسط الكلام على مذاهب هؤلاء في غير هذا الموضع وأصولهم لا أفسد منها فإن الله أمر العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا وأن يدعوه فهو سبحانه وحده يثيبهم إذا أطاعوه و يجيبهم إذا دعوه وقد بينا في غير هذا الموضع أنه لو كان شيء من العالم قديما للزم أن تكون له علة تامة فإن العلة التامة القديمة لا يتأخر عنها شيء من معلولها فلا يصدر عن العلة التامة حادث والعالم لا ينفك عن حادث فيمتنع صدور ما يستلزم الحوادث عن علة تامة أزلية فيمتنع أن يكون

قديما   و أيضا فكل ما سوى الله ممكن يقبل الوجود والعدم وكل ما يقبل الوجود والعدم لا يكون إلا حادثا فأما ما كان قديما أزليا واجب الوجود ممتنع العدم دائما فيمتنع أن يكون ممكنا يقبل الوجود والعدم سواء قيل هو واجب الوجوب بنفسه أو بغيره   وأما كون النبي صلى الله عليه وسلم يشعر بالسلام عليه فهذا حق وهو يقتضي أن حاله بعد موته أكمل من حاله قبل مولده وهذا لا ريب فيه و أما قول القائل قد توسل به الأنبياء قبلنا فيقال مثل هذا ليس بحجة ولا يصح الاحتجاج به بإجماع المسلمين فإن الناس لهم في شرع من قبلنا قولان   أحدهما أنه ليس بحجة   والثاني أنه حجة ما لم يأت شرعنا بخلافه بشرط أن يثبت ذلك بنقل معلوم كأخبار النبي صلى الله عليه وسلم   فأما الاعتماد على نقل أهل الكتاب أو نقل من نقل عنهم فهذا لا يجوز باتفاق المسلمين لأن في الصحيح عنه أنه قال إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه و إما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه   وفي المسند و سنن النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة فقال أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيا ثم اتبعتموه و تركتموني لضللتم   وهذه القصص التي يذكر فيها التوسل عن الأنبياء بنبينا ليست في شيء من كتب الحديث المعتمدة ولا لها إسناد معروف عن أحد من الصحابة وإنما تذكر مرسلة كما تذكر الإسرائيليات التي تروي عمن لا يعرف   وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على ما نقل في ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتكلمنا عليه و بينا بطلان ذلك جميعه وإن كان ذلك قد نقل عن كعب ووهب ومالك بن دينار ونحوهم ممن ينقل عن أهل الكتاب لم يجز أن يحتج به لأن الواحد من هؤلاء و إن كان ثقة فغاية

ما عنده أن ينقل عن كتاب من كتب أهل الكتاب أو يسمعه من بعضهم فإن بينه وبين الأنبياء الذين يروي ذلك عنهم دهرا طويلا والحديث المرسل عن المجهول من الكتاب الذي لا يعرف علمه وصدقة لا يقبل باتفاق المسلمين ومراسيل أهل ديننا عن نبينا صلى الله عليه وسلم لا تقبل عند أئمة العلماء مع كون نبينا قريبا و ديننا محفوظا محروسا فكيف بما يرسل عن آدم وإدريس ونوح و غيرهم والقرآن قد أخبر بأدعية الأنبياء و توباتهم و استغفارهم و ليس فيه شيء من هذا الذي ذكروه وقد نقل أبو نعيم في الحلية أن داود عليه السلام قال يا رب أسألك بحق آبائي عليك إبراهيم وإسحاق و يعقوب فقال الله له يا داود وأي حق لآبائك علي فإن كانت الإسرائيليات حجة فهذا فيه دليل على أنه لا يسأل الله بحق الأنبياء و إن لم تكن حجة لم يجز الاحتجاج بتلك الإسرائيليات ثم إن توسل النبي المتقدم بالنبي الذي بعده يقتضي أن يكون أفضل منه فيقتضي أن يتوسل نوح بإبراهيم و داود بعيسى و إسرائيل بموسى ومثل هذا لو كان حقا لكان أصلا في العلم الصحيح و لكن المتقدم من الأنبياء يبشر بمن يأتي بعده منهم وليس هو مأمورا بإتباع شريعة من يأتي بعده بل إما أن يكون مأمورا بإتباع شريعة توحي إليه أو شريعة رسول قبله فهو مستغن عمن بعده متبع لمن قبله فكيف يتوسل بالمتأخر ولا يتوسل بالمتقدم الذي يجب عليه إتباعه وقد ثبت في الصحيحين حديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار فانطبقت عليهم الصخرة فتوسل أحدهم ببره بوالديه وتوسل الآخر بعفته عن الفاحشة مع التمكن منها والمحبة وتوسل الآخر بأدائه الأمانة مع تثمير المال و طول المدة ففرج الله عنهم فلو كان ما ذكر صحيحا لتوسلوا بالأنبياء و بصالح أعمال الأنبياء فكيف يدعون التوسل بذلك و يتوسلون بما لم يذكر في كتاب

و لا سنة ولو كان هذا صحيحا لكان مشهورا بل مشروعا لنا وكنا نحن أحق بذلك لأن هذه الأمة أفضل الأمم وأولى بكل خير كان و يكون ولأنه رسولها و نبيها فلما كان لم يكن لهذا أصل عند أحد من الصحابة و التابعين لهم بإحسان علم أن هذا من أكاذيب المفترين واستغاثة الصحابة به في القحط إنما استغاثوا به ليدعو لهم كما يستغيث الناس به يوم القيامة ليشفع لهم و الاستغاثة بالمخلوق ليدعو للعبد أو ليعينه بما يقدر عليه ليس بممنوع منه وإنما الممنوع أن يستغاث به فيما لا يقدر عليه وأن يقسم على الله به ولا سيما إذا كان المخلوق ميتا أو غائبا فلا يجوز أن يستغاث به فيما يقدر عليه حيا ولا فيما لا يقدر عليه و أما استغاثة الجمل به ليجيره من ظلم أهله فهو أيضا طلب منه أن يشكيه فأشكاه بمنع أهله من أذاه وهذا جائز وما روي عن عائشة رضي الله عنها من فتح الكوة من قبره إلى السماء لينزل المطر فليس بصحيح ولا يثبت إسناده و إنما نقل ذلك من هو معروف بالكذب و مما يبين كذب هذا أنه في مدة حياة عائشة لم يكن للبيت كوة بل كان بعضه باقيا كما كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم بعضه مسقوف وبعضه مكشوف وكانت الشمس تنزل فيه كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حجرتها لم يظهر الفيء بعد ولم تزل الحجرة كذلك حتى زاد الوليد بن عبد الملك في المسجد في إمارته لما زاد الحجر في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وكان نائبه على المدينة ابن عمه عمر بن عبد العزيز وكانت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم شرقي المسجد و قبليه فأمره أن يشتريها من ملاكها ورثة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فاشتراها وأدخلها في المسجد فزاد في قبلي المسجد و شرقيه ومن حينئذ دخلت الحجرة النبوية

في المسجد و إلا فهي قبل ذلك كانت خارجة عن المسجد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبعد موته ثم إنه بنى حول حجرة عائشة التي فيها القبر جدار عال وبعد ذلك جعلت الكوة لينزل منها من ينزل إذا احتيج إلى ذلك لأجل كنس أو تنظيف وأما وجود الكوة في حياة عائشة فكذب بين ولو صح ذلك لكان حجة و دليلا على أن القوم لم يكونوا يقسمون على الله بمخلوق ولا يتوسلون في دعائهم بميت ولا يسألون الله به وإنما فتحوا على القبر لتنزل الرحمة عليه ولم يكن هناك دعاء يقسمون به عليه فأين هذا من هذا والمخلوق إنما ينفع المخلوق بدعائه أو بعمله فإن الله تعالى يحب أن نتوسل إليه بالإيمان والعمل والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم و محبته و طاعته و موالاته فهذه الأمور التي يحب الله أن نتوسل بها إليه و إن أريد أن نتوسل إليه بما تحب ذاته وإن لم يكن هناك ما يحب الله أن نتوسل به من الإيمان و العمل الصالح فهذا باطل عقلا و شرعا أما عقلا فلأنه ليس في كون الشخص المعين محبوبا له ما يوجب كون حاجتي تقضي بالتوسل بذاته إذا لم يكن مني ولا منه سبب تقضي به حاجتي فإن كان منه دعاء لي أو كان مني إيمان به وطاعة له فلا ريب أن هذه وسيلة و أما نفس ذاته المحبوبة فأي وسيلة لي فيها إذا لم يحصل لي السبب الذي أمرت به فيها و لهذا لو توسل به من كفر به مع محبته له لم ينفعه والمؤمن به ينفعه الإيمان به وهو أعظم الوسائل فتبين أن الوسيلة بين العباد و بين ربهم عز وجل الإيمان بالرسل و طاعتهم ومن يطع الله و الرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا و أما الشرع فيقال العبادات كلها مبناها على الإتباع لا على الابتداع فلبس لأحد أن يشرع من الدين ما لم يأذن به الله فليس لأحد أن يصلى إلى قبره ويقول

هو أحق بالصلاة إليه من الكعبة وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها مع أن طائفة من غلاة العباد يصلون إلى قبور شيوخهم بل يستدبرون القبلة ويصلون إلى إلى قبر الشيخ و يقولون هذه قبلة الخاصة والكعبة قبلة العامة و طائفة أخرى يرون أن الصلاة عند قبور شيوخهم أفضل من الصلاة في المساجد حتى المسجد الحرام والأقصى و كثير من الناس يرى أن الدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين أفضل منه في المساجد و لأهل البدع عبادات كثيرة قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع و بينا بطلانها وهذا كله مما قد علم جميع أهل العلم بدين الإسلام أنه مناف لشريعة الإسلام و أنه لم ينقله أحد من علماء الأمة بل هم متفقون على أنه لا فضيلة للصلاة عند القبور ولا في المساجد المبنية عليها التي تسمى المشاهد مع أن طائفة من الغلاة من أهل الشيعة ومن المنتسبين إلى السنة يرون السفر إليها حجا وقد صنف ابن النعمان المفيد شيخ الرافضة كتابا سماه مناسك حج المشاهدة وذكر فيه من فضل العبادات فيها ما هو أعظم من العبادات المشروعة في المسجد الحرام وقال بعض المتفلسفة إن الأرواح المفارقة قد حصل لها قوة وكمال فإذا اتصل بها روح الزائر مع خشوعه فاض عليها من آثار تلك الروح ما تقوى به و تستنير هذا من قول أهل الزور ومن لم يعتصم في هذا الباب وغيره بالكتاب والسنة إلا ضل وأضل ووقع في مهواة من التلف فعلى العبد أن يسلم للشريعة المحمدية الكاملة البيضاء الواضحة و يعلم أنها جاءت بتحصيل المصالح و تكميلها وتعطيل المفاسد و تقليلها وإذا رأى من العبادات و التقشفات و غيرها التي يظنها حسنة و نافعة ما ليس بمشروع علم أن ضررها راجح على نفعها ومفسدتها راجحة على مصلحتها إذ الشارع الحكيم

لا يهمل المصالح وقد كتبت في هذه المسألة نحو مجلد وذكرتها في مواضع أخر و بينت أسباب الشرك وما فيه من الفوائد و المقاصد التي ضل بها المشركون و أنها معمورة بالمفاسد ومعمورة بالمضار التي من أجلها حرمها الله فإن قال القائل أنا إذا توسلت بذاته إنما توسلت بعملي المتعلق به وذلك أنه لحبي له و تعظيمي إياه توسلت به وهذا مما يحبه الله تعالى مني قيل حبك له و تعظيمك له الذي هو من الإيمان به هو يدعوك إلى زيادة الإيمان به و طاعته وهو الذي يحبه الله منك وأما حبك له وهو الذي لا تقصد به إلا قضاء حاجتك الدنيوية فهذا لا يحبه الله منك كما أن حب أبي طالب إنما كان قصده به تعظيم نسبه وإقامة حرمته لم يقبله الله منه وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور وكثير من الناس دعا بدعاء فأجيب وحصل له به ضرر أعظم من نفع ذلك الدعاء وأعرف من يستغيث برجال أحياء فيتصورون له و يدفعون عنه ما كان يحذر و يحصل له ما كان يطلب والأحياء الذين استغاث بهم لا يشعرون بشيء من ذلك وإنما هي شياطين تمثلت على صورهم لتضل ذلك الداعي المشرك كما كانت الإنس تستعيذ بالجن فكانت رؤساء الجن تعبدهم والذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب ويدعونها تتنزل عليهم أرواح من الجن وتقضي لهم كثيرا من حوائجهم و يسمونها روحانية ذلك الكوكب وهو شيطان ومن الشياطين من يطير بصاحبه من الإنس في الهواء ويضعه على رأس السنان و يدخل به النار فيمنعه حرها فالسعادة و النجاة في الاعتصام بالكتاب و السنة و اتباع ما شرع كما شرع و الدعاء من أجل العبادات فينبغي للإنسان أن يلزم الأدعية المشروعة فإنها معصومة كما يتحرى في سائر عباداته الصورة المشروعة فإن هذا هو الصراط

المستقيم و الله تعالى يوفقنا و سائر إخواننا المؤمنين و ليحذر العبد مسالك أهل الظلم والجهل الذين يرون أنهم يسلكون مسالك العلماء تسمع من أحدهم جعجعة ولا ترى طحنا فترى أحدهم أنه في أعلى درجات العلم وهو إنما يعلم ظاهرا من الحياة الدنيا ولم يحم حول العلم الموروث عن سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم وقد تعدى على الأعراض والأموال بكثرة القيل و القال فأحدهم ظالم جاهل لم يسلك مسلك في كلامه مسلك أصاغر العلماء بل يتكلم بما هو من جنس كلام العامة الضلال و القصاص و الجهال ليس في كلام أحدهم تصوير للصواب ولا تحرير للجواب كأهل العلم أولي الألباب ولا عنده خوض العلماء أهل الاستدلال و الاجتهاد ولا يحسن التقليد الذي يعرفه متوسطة الفقهاء لعدم معرفته بأقوال الأئمة و مآخذهم و الكلام في الأحكام الشرعية لا يقبل من الباطل و التدليس ما ينفق على أهل الضلال و البدع الذي لم يأخذوا علومهم عن أنوار النبوة و إنما يتكلمون بحسب آرائهم و أهوائهم فيتكلمون بالكذب و التحريف فيدخلون في دين الإسلام ما ليس منه و إن كانوا لضلالهم يظنون أنه منه و هيهات هيهات فإن هذا الدين محفوظ بحفظ الله له و لما كانت ألفاظ القرآن محفوظة منقولة بالتواتر لم يطمع أحد في إبطال شيء منه ولا في زيادة شيء فيه بخلاف الكتب قبله قال تعالى إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون بخلاف كثير من الحديث طمع الشيطان في تحريف كثير منه و تغيير ألفاظه بالزيادة و النقصان و الكذب في متونه وإسناده فأقام الله له من يحفظه و يحميه و ينفي عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين و تأويل الجاهلين فبينوا ما أدخل أهل الكذب فيه وأهل التحريف في معانيه كما قال صلى الله عليه وسلم لا يزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا

من خذلهم حتى تقوم الساعة وقال صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وقد وقع في هذا الباب كثير من الفقهاء و الفقراء و العامة و نحوهم ممن فيه زهد ودين و صلاح ولكن كل من لم يكن علمه و عمله يرجع إلى العلم الموروث عن الرسول مقيدا بالشريعة النبوية لم يخلص من الأهواء والبدع بل كله أهواء وبدع وقد ذكره الخطيب البغدادي وقد قال عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة فانظروا أعمالكم إن كانت اقتصادا أو اجتهادا أن تكون على منهاج الأنبياء وسنتهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد أخرجاه وفي رواية من عمل عملا ليس على أمرنا فهو رد وقد اتفق المسلمون على أنه ليس لأحد أن يعبد الله بما سنح له وأحبه ورآه بل لا يعبده إلا بالعبادة الشرعية وقد قال فضيل بن عياض في قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا قال أخلصه وأصوبه قيل ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة وقال أبو بكر بن عياش لما قيل له إن بالمسجد أقواما يجلسون ويجلس إليهم الناس فقال من جلس للناس جلس إليه ولكن أهل السنة يموتون ويبقى ذكرهم لأنهم أحيوا بعض ما جاء به الرسول فكان لهم نصيب من قوله تعالى و رفعنا لك ذكرك و أهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم لأنهم شانوا بعض ما جاء به الرسول فبترهم الله فكان لهم نصيب من قوله تعالى إن شانئك هو الأبتر ولهذا كانت أصول الإسلام كما قال الإمام أحمد وغيره تدور على ثلاثة أحاديث قوله الحلال

بين والحرام بين   وقوله إنما الأعمال بالنيات   وقوله من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد   وذلك أن الدين فعل ما أمر الله به و ترك ما نهى الله عنه والنهي عن ذكره في حديث الحرام بين وذكر حكم ما يشتبه به وما لا يشتبه به   و المأمور به أمران عمل باطن وهو إخلاص الدين لله و عمل ظاهر وهو ما شرعه الله لنا من واجب و مستحب   وخلق كثير يعبدون غير الله وخلق يبتدعون عبادة لم يأذن بها الله كما ذكر تعالى ذلك في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما من السور المكية وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا اليهود والنصارى قال فمن   وفي الصحيح أيضا أنه قال لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبرا بشبر و ذراعا بذراع قالوا فارس والروم قال ومن الناس إلا هؤلاء   وقد أمرنا الله أن نقول في صلاتنا اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم إلى آخرها   وكثير من الناس عملهم ليس خالصا لله ولا موافقا لشريعة الله مبتدعة ضلال يشرعون دينا لم يأذن به الله وقد قال الله تعالى و أنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون   وقال تعالى ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع و إن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها   وقال ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع   فأخبر تعالى أنه ليس للمخلوق من دونه ولي يلي أمورهم ولا شفيع يعينهم من دون الله ويقال إن طائفة تسمى السوفسطائية أنكرت الحقائق ولم تقر بشيء مما تحسه أو تعقله وهذا لا يمكن أن تعيش عليه أمة من الأمم مدة من الزمان فإن الناس إن لم يعرف بعضهم بعضا ويميز الشخص منهم بين غيره و بين نفسه وبين يومه وأمسه ومأكوله ومشروبه وبين زوجته وولده وغير زوجته

وولده وبين ثوبه وثوب غيره وكلامه وكلام غيره ونحو ذلك و إلا كان مجنونا بل أكثر المجانين لا بد لهم من نوع تمييز كما للبهائم تمييز فكيف يتصور أن يكون في الوجود طائفة تنكر كل شيء ولا تقر بثبوت شيء وإنما السفسطة حال تعرض لبعض الناس فيجد فيها بعض الحقائق ويلبس الحق بالباطل وقيل إن السفسطة كلمة معربة من اليونانية وإن أصلها سوفسطا أي حكمة مموهة وغيرت بالتعريب كسائر ما عربته العرب من ألفاظ العجم ولا ريب أن في الناس من يسفسط في بعض الأمور فيجحد الحق بعدما تبين أو يجحد علمه به أو يقر ببعضه دون بعض أو يجعل الحقائق تبعا للعقائد أي ما يعتقده هو فيقال السوفسطائية أربعة أقسام قسم يجحد الحقائق وقسم يجحد العلم بها وقسم متجاهل لا أدرية واقفة وقسم جاعل الحقائق تبعا للعقائد فهذه الأقسام الأربعة لا توجد في غالب في كثير من الأمور إما أن ينفي الحق الثابت أو ينكر علمه به ويقول ما أعرفه أو يقف في وجوده وفي علمه به أو يجعل الحقائق تبعا لما يعتقده وفي الناس من هذا وغيره عجائب وإنما يخلص العبد من ذلك علمه ما الناس عليه وما بعث الله به رسوله فيعلم الوجود العيني والثبوت العلمي كما قال تعالى اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وقال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم فمن عرف أخبار الأمم المتبعين للرسل والمخالفين لهم وعاقبة هؤلاء وهؤلاء كان في ذلك له عبرة وحجة توافق القرآن ومعلوم أن معرفة مذاهب الناس ومقالاتهم ودياناتهم ومللهم ونحلهم وآرائهم لا يخلو صاحبها من معرفة أن يكون فيها تابعا للرسل ومللهم أو لا يكون وقد جعل بعض الناس معرفة التاريخ من المقالات ولعمري إنها لداخلة فيما يقص من أحوال

الناس وأفعالهم ولكن الشأن في تمييز الصدق منها من الكذب والاعتبار بالصدق منها كما قال تعالى لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى فدل على أن فيما يقصه الناس في تواريخهم ومقالاتهم ومذاهبهم ما هو مفترى لا حقيقة له فكتب المؤرخين الذين لا يقصدون الكلام على الآراء والديانات فيها ما يشتمل على الصدق والكذب وهي أكثر التواريخ التي لم توزن بتمييز أهل المعرفة بالمنقولات وكذلك الكتب التي يذكر فيها مقالات الناس وآراؤهم ودياناتهم فيها ما يشتمل على الصدق والكذب وهي ما لم توزن بنقد من يخبر المقالات وكذلك تعمد الكذب قليل في أهل العقول والديانات المصنفين لتواريخ السير وفي الرد على البكري أن مسألة الله بأسمائه وصفاته وكلماته جائز مشروع كما جاءت به الأحاديث وأما دعاء صفاته وكلماته فكفر باتفاق المسلمين فهل يقول مسلم يا كلام الله اغفر لي وارحمني وأغثني أو أعني أو يا علم الله أو يا قدرة الله أو يا عزة الله أو يا عظمة الله ونحو ذلك أو سمع من مسلم أو كافر أنه دعا لذلك من صفات الله وصفات غيره أو يطلب من الصفة جلب منفعة أو دفع مضرة أو إعانة أو نصرا أو إغاثة أو غير ذلك والنصارى وإن كانوا يقولون المسيح هو كلمة الله و يدعونه ويتخذونه إلها فهو عندهم عين قائمة بنفسها حاملة للصفات ليس المسيح عندهم صفة قائمة بموصوف ولكن مذهبهم متناقض حيث يجعلون الإله واحدا و الأقانيم ثلاثة ويدعون أن المتحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة فإن فسروا الأقنوم بما يجري مجرى الصفة لزم أن تكون الصفة خالقة وهم لا يقولون ذلك و إن فسروه بما يجري مجرى الموصوف لزم أن تكون الذات الموصوفة وهي الأب هي المسيح وهم لا يقولون ذلك فقولهم متناقض في نفسه باتفاق عقلاء بني آدم ولم يقولوا إن مجرى

الصفة القائمة بغيرها تدعى و تسأل   قال وقوله من توسل إلى الله بنبيه في تفريج كربة أو استغاث به سواء كان ذلك بلفظ الاستغاثة أو التوسل أو غيرهما مما هو في معناهما فهذا القول لم يقله أحد من الأمم بل هو مما اختلقه هذا المفتري وإلا فلينقل ذلك عن أحد من الناس   وما زلت أتعجب من هذا القول وكيف يقوله عاقل والفرق واضح بين السؤال بالشخص والاستغاثة به وأريد أن أعرف من أين دخل اللبس على هؤلاء الجهال فإن معرفة المرض وسببه يعين على مداواته وعلاجه ومن لم يعرف أسباب المقالات وإن كانت باطلة لم يتمكن من مداواة أصحابها وإزالة شبهاتهم فوقع لي أن سبب هذا الضلال الاشتباه عليهم أنهم عرفوا أن يقال سألت الله بكذا كما في الحديث اللهم إني أسألك بأن لك الحمد أنت المنان ورأيي أن الاستغاثة تتعدى بنفسها كما يتعدى السؤال كقوله إذ تستغيثون ربكم   وقوله فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه   فظنوا أن قول القائل استغثت بفلان كقوله سألت بفلان والمتوسل إلى الله بغائب أو ميت تارة يقول أتوسل إليك بفلان وتارة يقول أسألك بفلان فإذا قيل ذلك بلفظ الاستغاثة فإما أن يقول أستغيثك بفلان أو أستغيث إليك بفلان ومعلوم أن كلا هذين القولين ليس من كلام العرب   وأصل الشبهة على هذا التقدير أنهم لم يفرقوا بين الباء في استغثت به التي يكون المضاف بها مستغاثا مدعوا مسؤولا مطلوبا منه وبالاستغاثة المحضة من الإغاثة التي يكون المضاف بها مطلوبا به لا مطلوبا منه فإذا قيل توسلت به أو سألت به أو توجهت به فهي الاستغاثة كما تقول كتبت بالقلم وهم يقولون أستغيثه واستغثت به من الإغاثة كما يقولون استغثت الله واستغثت به من الغوث فالله في كلا الموضعين مسؤول مطلوب منه وإذا قالوا لمخلوق استغثته

واستغثت به من الغوث كان المخلوق مسؤولا مطلوبا منه وأما إذا قالوا استغث به من الإغاثة فقد يكون مسؤولا وقد لا يكون مسؤولا   وكذلك استنصرته واستنصرت به فإن المستنصر يكون مسؤولا مطلوبا و أما المستنصر به فقد يكون مسؤولا وقد لا يكون مسؤولا   فلفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به   وقول القائل استغثت فلانا واستغثت به بمعنى طلبت منه الإغاثة لا بمعنى توسلت به فلا يجوز للإنسان الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله   قال في الوجه الرابع إن التضمين المعروف في اللغة إنما هو ضم معنى لفظ معروف إلى آخر مع بقاء معنى اللفظ الأول كما في قوله و احذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإنه ضمن معنى الإذاعة فعدى بحرف الغاية عن مع أنه فتنة   وكذلك قوله لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه فإنه ضمن معنى الضم والجمع فعدي بحرف الغاية مع أن معنى السؤال موجود   وكذلك قوله و نصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ضمنه معنى نجيناه مع بقاء معنى النصر وقوله يشرب بها عباد الله ضمن معنى يروي فعدي بحرف الباء مع بقاء معنى الشرب   وهكذا إذا قيل استغثت بالله من الغوث فإنه ضمن معنى الاستغاثة التي هي من العون فعدي بالباء مع بقاء معنى الاستغاثة وهي طلب من المستغاث به   فأما إذا قيل استغثت بفلان من الغوث بمعنى سألت غيره به و توسلت به فهذا لا يجوز لأنه أحال معنى الاستغاثة فإن معناها طلب الإغاثة من المستغاث به ومعلوم أن المسؤول به والمقسم به والمتوسل به ليس مسؤولا ولا مطلوبا منه ففيه تبديل معنى اللفظ فلا يجوز ذلك   وقال في الوجه الخامس إنه لو قدر أن معنى ذلك معنى التوسل بالأنبياء فالتوسل بهم الذي جاءت به الشريعة هو

التوسل إلى الله بالإيمان بهم وبطاعتهم أو بدعائهم وشفاعتهم كما كان الصحابة يتوسلون بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء وغيره كما في حديث الأعمى وكما يتوسل الخلائق يوم القيامة بشفاعته وأعظم وسائل الخلائق إلى الله تعالى الإيمان بهم وإتباعهم وطاعتهم فأما التوسل بذواتهم والسؤال بهم بدون دعائهم وشفاعتهم وطاعتهم التي يثيب الله عليها فهذا باطل لا أصل له في شرع ولا عقل وقال أيضا فالمخلوق لا يفعل شفاعة ولا غيرها إلا لرجاء منفعة ما تأتيه من خارج أو خوف مضرة تأتيه من خارج وإلا فلو قدر أن نفسه مستغنية بنفسه عن كل ما سواه لم يفعل الأفعال التي جرت بها عادة المخلوق والخالق سبحانه غني عن الخلق كلهم وكلهم مفتقر إليه وكل ما يكون فيهم مما يحبه ويرضاه كالإيمان والعمل الصالح فذلك منه فهو الخالق لذلك تفضلا وكرما فهو الخالق لكل مخلوق وما عمل وهو المتصف بكل صفة كمال فليس في الوجود ما هو غيره إلا داخلا في مسمى أسمائه بحيث لا يكون ذلك الداخل في مسمى أسمائه إلا وهو من مخلوقاته و مفعولاته ومصنوعاته ومعاملات بعضهم لبعض لا تخرج عن معاوضة كالمبايعة والمؤاجرة ولهذا قال الفقهاء إن كلا من الشريكين يتصرف في حقه بحكم الملك وفي حق شريكه بحكم الوكالة فأكثر معاملات الناس مشاركة والمشاركة فيها نوع من المعاوضة والمعاوضة الظاهرة كالمبايعة والمؤاجرة فيها أيضا معنى المشاركة فإن التجار والصناع هم مشاركون للناس في مصالح دنياهم متعاونون عليها إذ كان الإنسان مدنيا بالطبع لا تتم مصلحته إلا ببني جنسه يعاونونه على جلب المنفعة ودفع المضرة والمعاوضة بينهم هي التي تبعث على المعاونة أو كل منهم لا يفعل إلا ما يجلب إلى نفسه به منفعة أو يدفع به مضرة وإذا كان

عامة ما بين الخلق من الأسباب الكسبية التي بها يتساءلون ويشفع بعضهم إلى بعض هي من جنس المشاركة فالسبب الآخر هو الولادة فالأسباب والصلات التي بين الناس لا تخرج عن سبب خلقي وهو الولادة أو سبب كسبي من جنس المشاركة والمعاوضة ولهذا افتتح الله سورة النساء بقوله يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها الآية فإن هذه السورة ذكر فيها حكم الأسباب التي بين الناس من هذا وهذا فذكر ما يتعلق بالولادة من القرابة والرحم وما يتعلق من المواريث والمناكح وكذلك ما يحصل بينهم بالعقود من المناكح والمواريث والوصايا على اليتامى فالنسب من الأول والصهر من الثاني كما قال وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا فافتتح السورة بقوله الذي خلقكم من نفس واحدة ثم قال واتقوا الله الذي تساءلون به أي تتعاهدون به و تتعاقدون و الأرحام فدخل في الأول ما بينهم من التساؤل والتعاهد والتعاقد الذي يجمع المعاوضة والمشاركة ودخل في الثاني الولادة و فروعها فالخلق إنما يتصل بعضهم ببعض من هذين الوجهين المشاركة والولادة وقد نزه الله سبحانه نفسه المقدسة عنهما فقال وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل

وقال ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك و خلق كل شيء فقدره تقديرا

وقال قل هو الله أحد إلى آخر السورة

ومن هنا ضل من ضل من المشركين وأشباههم من الصابئين والنصارى ومن ضاهاهم فإنهم جعلوا المخلوق للخالق بمنزلة الشريك والولد وهذا أصل مادة كلام هؤلاء الجهلة الضلال ونحوهم والقرآن قد حسم هذه المادة

الفاسدة وجرد التوحيد وبين أنه لا نسبة بين المخلوق والخالق إلا نسبة العبودية المحضة قال تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون وقال لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون وقال إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبدا فصل قال وإثبات الأسباب مما نطق به الكتاب واتفق عليه أولو الألباب لكن الشأن في تحقيق المناط وإدراج محل النزاع تحت هذه القاعدة وإلا فما قاله من أن الأسباب والحكمة ليس له حاصل كلمة حق أريد بها باطل فإن قوله وليس رجوع الأشياء إلى الباري من جهة القدرة بمبطل لما أثبته الباري من الأسباب لم ينازع فيه لكن يقال لم قلت إن ما ادعيته هو من الأسباب التي أثبتها الله تعالى فإنك لم تأت على هذا بحجة أصلا وأنت محتاج إلى شيئين إلى أن تثبت أنه سبب في الواقع وأنه سبب غير مشروع غير محظور فإن الأقسام ثلاثة لأن الشيء إما أن يكون سببا مباحا أو محرما أو لا يكون سببا مع ظن كثير من الناس أنه سبب فكثير من الأمور فيها ما يظن أنه سبب و ليس بسبب كما يظن اليهود والنصارى أن اتباع دينهم سبب لنيل الجنة والثواب في الآخرة وهو ضالون في اعتقادهم أن هذا سبب لذلك وكذلك ما يعتقده الجهال أن النذر سبب لحصول الحاجات المطلوبة ودفع المكاره المرهوبة وقد ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تنذروا فإن النذر لا يغني من القدر شيئا وإنما يستخرج به من البخيل رواه البخاري ومسلم

و كما يظهر المشركون أنهم إذا دعوا الأصنام أو من يعبدونه من دون الله أن عبادتهم تنفعهم وتقربهم إلى الله زلفى وأنها سبب لنجاتهم وقضاء حوائجهم وكما يظن من يدعو عند القبور أنه سبب لنيل طلبته وقضاء حاجته وكذلك المستغيثون بالموتى والغائبين من الأنبياء والصالحين وغيرهم كل ذلك باطل وليس بسبب وأما السبب المحظور فكالقتل والزنا والسرقة فإنه سبب لنيل كثير من الأغراض الفاسدة وكذلك الشرك والسحر قد يكون سببا لنيل بعض المطالب والمقاصد وأما السبب المباح المشروع فكالعبادات الشرعية في حصول الأجر و الثواب وكالدعاء لله والاستغاثة به والتوكل عليه في حصول ما يقدره الله بذلك من المطالب وكالأكل والشرب والنكاح والازدراع وغير ذلك في حصول ما علقه الله بذلك من شبع وري وولد ونبات وغير ذلك وهذا التقسيم بين و أما قوله إذا علمت أن الاستغاثة به صحيحة وأن كل متوسل به إلى الله مستغيث به عرفت ان الأستغاثة به بعد موته ثابتة ثبوتها في حياته فكلام لا يقوله عاقل فضلا عن أن يقوله كتابي فضلا عن أن يقوله مسلم وهو كلام باطل قطعا وذلك أنه صلى الله عليه وسلم في حياته يجوز أن يستغاث به فيطلب منه أن ينصر المظلوم ويطعم الجائع ويسقي الظمآن ويخلص الأسرى ويقضي دين المدين و يبين الدين و يزيح شبهات المعارضين ويجيب السائلين ونحو ذلك ومعلوم أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الناس عملا وأعظمهم عل البر والتقوى بل كل خير في الوجود فهو معين عليه بل له مثل أجر كل عامل خير من أمته فإنه هو الذي دعا إلى ذلك ومن دعا إلى هدى كان له مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا والاستغاثة طلب الإغاثة والتخليص من الكربة والشدة وأنواع الكرب في الشدائد كثيرة لكثرة أسبابها كالأمراض

والحاجات والأعداء فإن الأمراض فيها من الشدة التي تلحق المريض وأهله وأصدقاءه ما الله به عليم والحاجة إلى الرزق لنفسه وعياله وما ينال الإنسان بسبب الديون عليه كذلك وما يناله إذا قل رزقه من أنواع الشدائد وكذلك حال العدو الظالم من الكفار والفجار في عدوانهم على الناس من الكرب والشدائد ما لا يقدر قدره إلا الله   ومن هو دون الرسول من عموم المؤمنين يستغاث به ويطلب منه في حياته الإغاثة على دفع هذه الشدائد كلها بحسب قدرته وذلك إما واجب و إما مستحب ومعلوم أن طلب المؤمنين ذلك من رسول الله في حال حياته أعظم من طلبهم له من كل خليفة و عالم وشيخ وملك وهو أقوم بذلك من هؤلاء وأقدر على إزالة ذلك منهم فكانوا عند الجدب يفزعون إليه حتى يستسقي الله لهم وعند الحرب يفزعون إليه طلبا لأمره ودعائه بل قد روى البراء عن علي أنه قال كنا إذا احمر البأس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن أحد أقرب إلى العدو منه   وفي الصحيح أن أهل المدينة فزعوا فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسا لأبي طلحة عري فكشف لهم ثم رجع فقال لن تراعوا وإن وجدناه لبحرا   وعند قلة الطعام والماء فإليه يفزعون فيدعو لهم فيكثر الطعام كما فعل ذلك غير مرة في عام الخندق وفي السفر وغير ذلك وعند قلة الماء فيكثره الله ببركته إما بنبغيه من بين أصابعه كما نبع غير مرة بالمدينة وغيرها كيوم الحديبية وإما بدون النبع كما فعل بمزادتي المرأة اللتين شرب منهما الجيش ولم ينقص منهما شيء وعند المخاوف يفزعون إليه فيرمي الحصى في وجوه الكفار ونحو ذلك فقول القائل إن الاستغاثة به بعد موته ثابتة ثبوتها في حياته لزم من ذلك أن نطلب منه هذه الأشياء المذكورة وغيرها بعد موته ووجب أن يفعلها بعد

موته فيخرج في الغزوات ويقيم الحدود ويعود المريض فاعلا ذلك ببدنه بعد مماته كما كان يفعل ذلك في حياته فهل يقول هذا إنسان أو يحتاج رد هذا إلى برهان   ولكن علينا بعد موته من الإيمان به وطاعته ما علينا في حياته أن نصدق خبره و نطيع أمره ونشهد له أنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبدالله حتى أتاه اليقين   فليس عليه بعد موته أن يأمرنا ولا ينهانا ولا يعلمنا ولا يهدينا وليس عليه بعد الموت فعل من الأفعال لا واجب ولا مستحب كما ليس ذلك على غيره من الناس بل الموت ينتهي به التكليف الثابت في الحياة بإجماع الخلق فليس على نبي ولا غيره بعد موته أن يفعل ما كان يؤمر به في حال الحياة من واجب ومستحب وإغاثة الأمة من جملة ما كان يفعله من الواجبات والمستحبات باقيا لهم قد أدى وأبان ونصح   ولا يستطيع أحد أن ينقل عن أحد من الصحابة ولا من السلف أنهم بعد موته طلبوا منه إغاثة ولا نصرا ولا إعانة ولا استسقوا بقبره ولا استنصروا به كما كانوا يفعلون ذلك في حياته ولا فعل ذلك أحد من أهل العلم والإيمان   وإنما يحكى مثل ذلك عن أقوام جهال أتوا قبره فسألوه بعض الأطعمة أو استنصروه على بعض الظلمة فحصل بعض ذلك وذلك لكرامته على ربه ولحفظ إيمان أولئك الجهال فإنهم إذا لم تقض حاجتهم وقع في قلوبهم الشك وضعف إيمانهم أو وقع منهم إساءة أدب ونفس طلبهم الحاجات من الأموات هو إساءة أدب فقضى الله حاجتهم لئلا يضعف إيمانهم به وبما جاء به لئلا يرتدوا عن الإيمان فإنهم كانوا قريبي عهد بإيمان   وعلى كل لا يقتضي أن يكون ما فعله أولئك الجهال حسنا مشروعا مأمورا به فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في حياته يعطي المؤلفة قلوبهم الأموال ولا يعطي خواص المهاجرين والأنصار الذين هم احب إليه

من الذين يعطي ويقول إني لأعطي رجالا وأدع رجالا والذين أدع أحب إلي من الذين أعطي أعطي رجالا لما جعل الله في قلوبهم من الجزع والهلع وأكل رجالا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير وقال إني لأعطي أحدهم العطية فيخرج بها يتأبطها نارا قالوا يا رسول الله فلم تعطيهم قال يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل وإعطاؤه لصناديد نجد وقريش عام حنين مع أنه لم يعط الأنصار مشهور وقد بين للأنصار لما جمعهم في القبة ما في ذلك لهم من السعادة وما فيه من التأليف لأولئك ليتقوى إيمانهم ويضعف نفاقهم فهل هذا العطاء منه لأجل هذه المصلحة مع قوله يتأبطها نارا موجب لمدح من سأله واستحسان حاله فإذا كان هو في حال حياته يعطيهم مع أن الذي سأله مذموم على سؤاله إياه مذموم على ما أعطاه إياه معاقب على ذلك والرسول مأجور على ذلك الإعطاء امتنع أن يحتج أحد بإعطائه على جواز سؤاله هذا وهو في الحياة فكيف بعد الموت وإنما عليه ما حمل من التبليغ وعلينا ما حملنا من طاعته ومن طاعته أنا نرغب إلى الله تعالى في جميع حوائجنا كما قال تعالى فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب و قال لابن عباس إذا سألت فاسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله فأعالي الصحابة كالصديق وغيره لم يكونوا يسألونه شيئا من المال بل قد روي امتناع بعضهم من الأخذ كعمر وغيره حتى قال له ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشرف فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك وقد قال تعالى أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل وقال تعالى لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن كان هذا السؤال نوعا آخر لكن المقصود أن سؤال الأنبياء حتى سؤال العلم منهم فيه أنواع كثيرة محرمة وإن كانوا قد

يعطون السائل فلا يدل ذلك على أن السؤال مشروع هذا في حياتهم فكيف بعد مماتهم ولم ينقل أحد من أهل العلم أن أحدا من السلف سأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا بعد موته لا عند قبره ولا عند غير قبره وكذلك قو عيسى لما سألوا المائدة قبل رفع عيسى إلى السماء لم يكونوا محمودين في مسألهم بل كان نزولها ضررا عليهم وكذلك قوم موسى سألوا موسى أن يريهم الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وقوم صالح سألوا صالحا آية فكانت سبب هلاكهم فالسؤال فتنة وشر للسائل وهو للمسؤول أجر وخير ومعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم والاعتداء في الدعاء تارة يكون بأن يسأل ما لا يصلح له مثل منازل الأنبياء أو يسأل أن يكون ملكا لا يحتاج إلى طعام وشراب أو أن يعلم الغيب أو أن يكون عنده خزائن الله يعطي منها ما يشاء ويمنع ما يشاء فإذا سأل ما هو من خصائص الربوبية أو خصائص النبوة كان هذا اعتداء وكذلك إذا سأل الله جبلا من ذهب أو أن يجعل السماوات أرضا والأرض سماوات أو أن لا يقيم الساعة كل هذا من الاعتداء ومنه أن يسأل ما فيه ظلم لغيره ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه المشهور الذي رواه أحمد وغيره والترمذي وصححه عن ابن عباس رب أعني ولا تعن علي وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي واهدني ويسر الهدى لي وانصرني على من بغى علي رب اجعلني لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطواعا لك مخبتا إليك أواها منيبا رب تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي وثبت حجتي واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري فقوله وانصرني على من بغى علي دعاء عادل لا دعاء معتد يقول انصرني على عدوي مطلقا ومن الاعتداء قول الأعرابي اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لقد تحجرت

واسعا يريد رحمة الله   وقد جعل الصحابة من الاعتداء ما هو دون هذا من تكثير الكلام الذي لا حاجة إليه كما في سنن أبي داود وغيره عن ابن سعد قال سمعني أبي وأنا أقول اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا فقال يا بني إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون قوم يعتدون في الدعاء فإياك أن تكون منهم إنك إن اعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر وسعد هذا هو سعد بن أبي وقاص أحد العشرة وأهل الشورى   وعن عبد الله بن مغفل أنه سمع ابنا له يقول في دعائه اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يا بني سل الله الجنة وتعوذ به من النار فإني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول يكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء والطهور

ومن أعظم الاعتداء والعدوان والذل والهوان أن يدعى غير الله فإن ذلك من الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإن الشرك لظلم عظيم فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا   وسؤال المخلوق محرم لغير حاجة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة في تحريم المسألة له ولغيره كحديث حكيم وقبيصة وغيرهما ففي حديث حكيم بن حزام قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى أخرجاه

وعن عوف بن مالك الأشجعي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية فقال ألا تبايعون فقلنا قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك يا رسول الله قال على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا والصلوات الخمس وتطيعوا وأسر كلمة خفية ولا تسألوا الناس شيئا قال فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدا يناولها أياه رواه مسلم وعن ثوبان مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكفل أن لا يسأل الناس شيئا وأنا أتكفل له الجنة فقال ثوبان أنا فكان لا يسأل أحدا شيئا

رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة واللفظ لأبي داود

وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن المسألة كد يكد بها الرجل وجهه إلا أن يسأل الرجل سلطانا أو في أمر لا بد منه رواه الترمذي وصححه وعن عائذ بن عمرو أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه فلما وضع رجل على أسكفة الباب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يعلمون ما في المسألة ما مشى أحد إلى أحد يسأله شيئا رواه النسائي وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا يسأله أعطاه أو منعه

أخرجاه واللفظ للبخاري

و لسلم لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به و يستغني به عن الناس خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه و عن الزبير بن العوام عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة حطب على ظهره يبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو

منعوه رواه البخاري   وعن قبيصة بن مخارق الهلالي أنه قال تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ثم قال يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة رجل تحمل حمالة حلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش أو قال سدادا فما سواهن من المسألة يا قبيصة فسحت يأكلها صاحبها سحتا   رواه مسلم و أبو داود والنسائي   وترك السؤال للمخلوق اعتياضا بسؤال الخلق أفضل مطلقا كما قال تعالى فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب   وقال يعقوب إنما أشكو بثي وحزني إلى الله   وقال الخليل عليه الصلاة والسلام فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له   وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله   وفي المسند أن أبا بكر الصديق كان السوط يسقط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه ويقول إن خليلي أمرني أ ن لا أسأل الناس شيئا   وفي الصحيحين حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون   وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال أصابتني فاقة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فوجدته يخطب الناس وهو يقول أيها الناس والله مهما يكون عندنا من خير فلن ندخره عنكم وإنه من يستغن يغنه الله ومن يستعف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر فقلت في نفسي والذي بعثك بالحق لا أسألك شيئا فرجعت فأغنى الله وجاء بخير   فأبو سعيد فهم من كلام النبي صلى

الله عليه وسلم أن ترك سؤاله تعففا واستغناء خير له من سؤاله   فإذا كان ترك سؤال الأنبياء في حياتهم أفضل مع الحاجة والفاقة ومع عدم الحاجة يكون حراما فكيف سؤال الغائب والميت منهم ومن غيرهم هل يكون عملا صالحا مشروعا مستحبا للناس   والله تعالى لم يأمر بسؤال الخلق قط لا أحياء ولا أمواتا ومن زعم أن سؤال المخلوق حيا أو ميتا قد أمر الله به أو هو واجب أو مستحب فهو غالط وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمته إذا سمعوا المؤذن أن يقولوا مثل ما يقول ثم يسألوا له الوسيلة ثم قال فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة فأمرهم أن يسألوا له الوسيلة   والوسيلة تتضمن شفاعته لهم فقد أمرهم أن يطلبوا له من الله ما يتضمن قبول شفاعته كما أمر الأعمى أن يقول في جملة دعائه اللهم شفعه في فإنه لم يأمرهم بذلك سائلا لهم بل آمرا لهم بما ينفعهم فإنهم إذا سألوا له حصل لهم من الثواب ما ذكر وإن كان هو ينتفع بإجابة الله سؤالهم فهو كما ينتفع بسائر ما نعمله مما أمرنا الله به ورسوله إذ كان له مثل أجورنا ولله تعالى المنة عليه بما أنعم عليه من أعماله وأعمال غيره التي ترتفع درجته بها ولله المنة على الذين أنعم عليهم بطاعته حتى نالوا ما نالوا من ثواب الله بذلك   والمؤمن المحسن المتبع لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أحدا بأمر لمجرد غرضه كما يأمر الملك والصديق والمالك ولا يسال أحدا شيئا بل إذا أمر أحد بأمر كان مقصوده بذلك انتفاع المأمور وحصول مصلحته وله أجر الناصح الدال على الخير الداعي إلى الهدى فيكون له مثل أجر العامل المأمور من غير أن ينقص من أجر العامل شيء وكذلك إذا قال لغيره ادع لي فإنه يقصد بذلك أن الداعي يحصل له مثل دعائه كما ثبت في الصحيح ما من مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا

وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك آمين ولك بمثل فهو يقصد أن يحصل للداعي ذلك ويقصد أيضا انتفاعه باستجابة الله دعاء ذلك الداعي له كما يقصد إذا أمره بالمعروف أن ينتفع المأمور بعمله ويكون للآمر مثل أجره فالمؤمن المتبع للسنة يحسن إلى الخلق ويطلب الأجر من الخالق فيكون قائما بحق الله وحق عباده قد أتى بحقيقة الصلاة وهي أن يعبد الله وحده وحقيقة الزكاة وهي الإحسان إلى الخلق فيجتمع له التعظيم لأمر الله والرحمة لعباد الله فيصلي على جنازة المسلم بقصد انتفاع الميت بالدعاء له وما يحصل له من الله من الأجر بإحسانه إلى الميت ويزور قبر أخيه المسلم من الصحابة والتابعين وأهل البيت وغيرهم بل ومن الأنبياء والمرسلين كما يصلي على جنازته فيسلم عليه ويدعو له فيرحم الله الميت باستجابة الدعاء ويثيب الله الساعي في وصول النفع والرحمة إليه على هذا الإحسان فهذا هو المشروع للمسلمين مع المسلمين فاستنزل الشيطان أهل البدعة والضلال فصاروا يزورون قبر الأنبياء والصالحين ولا يقصدون بتلك الزيارة الله والدار الآخرة ولا يخلصون لله الدين ولا ينال الميت رحمة وخيرا بدعاء الحي له ولا يرجون من الله ثواب ذلك فلا توحيد لله ولا إحسان إلى خلق الله بل يقصدون تكليف ذلك الميت حوائجهم يستعملونه ولا ينفعونه وهو أيضا لا ينفعهم ويشركون بالله ولا يوحدونه قد تركوا القيام بحق الله من العبادة له والتوكل عليه ورجاء رحمته وتركوا القيام بحقوق الأموات من الأنبياء والصالحين وغيرهم لما في ذلك من زيادة رحمة الله لهم وإحسانه إليهم ورفع درجاتهم مع ترك مسألة الحي القيوم العليم القدير وترك التوكل عليه كما قال وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا وإنزال حاجة الإنسان بمخلوق ميت أو حي إما

عاجز عنها وإما متكلف بها فإنه لا يستريب عاقل أن المخلوق في حياته ومماته لا يستوي عنده من يحسن إليه ويجلب له الخير والعافية ومن يكلفه ويؤذيه بالسؤال بطلب الحوائج منه مع علم المسؤول أنه ليس أهلا لما طلب منه بخلاف الخالق تعالى فإنه سبحانه وتعالى عما يشركون يحب من يسأله ويفتقر إليه كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلوا الله من فضله فإنه يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج   وفي حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يسأل الله يغضب عليه رواه الترمذى وابن ماجه

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب   ورأى الفضيل رجلا يشتكي إلى آخر فقال يا هذا تشتكي من يرحمك إلى من لا يرحمك كما قيل وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم   وشكى إليه رجل مرة حاله فقال له يا أخي أمدبرا غير الله تريد   ومما يروى عن عمر بن الخطاب أو غيره ارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله   وكما كتبت عائشة إلى معاوية أما بعد فإنه من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وجعل حامده من الناس له ذاما ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وجعل ذامه من الناس له حامدا وقال خالد بن معدان من اجترأ على الملاوم في مراد الحق رد الله تلك الملاوم له محامد ومن ترك قول الحق في مراد الخلق خوف ملاوم الخلق ورجاء محامدهم قلب الله تلك المحامد عليه ملاوما وذما   هذا تحقيق قوله تعالى أليس الله بكاف عبده   وقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه   وإنما

يؤتى الإنسان من نقص متابعته للرسول والله تعالى أمره باتباعه لا بالإشراك به فقال تعالى قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وسؤال الخلق هو في الأصل محرم لأنه فيه أنواع الظلم الثلاثة الظلم في حق الله بالشرك والظلم للمسؤول فإن فيه إيذاء له وظلم الإنسان نفسه لما فيه من تعبيدها لغير الله وقد أبيح من ذلك من سؤال الحي ما دل الشرع على إباحته وأما سؤال الميت والغائب فلم يأذن الله به قط ومن عدل عما أمر به الرسول من عبادة الله وحده والتوكل عليه والرغبة إليه وطاعته فيما أمر به من الإحسان والخير الذي ينتفع به هو وهم وغيره من المخلوقين فإن العبد كلما عمل بما أمرت به الرسل كان لهم مثل أجره وحصل له هو من الخير من إجابة دعائه ونفعه وغير ذلك فمن عدل عن هذه الرحمة والخير وسعادة الدنيا والآخرة إلى أن يفعل ما أمرته به الرسل بل اتخذهم أربابا يسألهم ويستغيث بهم في مماتهم ومغيبهم وغير ذلك كان مثله مثل النصارى فإن المسيح قال لهم اعبدوا الله ربي وربكم وقال إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة فلو امتثلوا أمره كانوا مطيعين لرسل الله موحدين لله ونالوا بذلك السعادة من الله تعالى في الدنيا والآخرة فغلوا فيه واتخذوه وأمه إلهين من دون الله يستغيثون به وبغيره من الأنبياء والصالحين ويطلبون منهم ويشركون بهم وكذبوا بالرسول الذي بشر به وحرفوا التوراة التي صدق بها وظنوا في ذلك أنهم معظمون للمسيح وكان هذا من جهلهم وضلالهم فإنهم كلما أطاعوه فيما دعاهم إليه كان له مثل أجورهم وكانت طاعتهم له والإقرار بعبوديته وبما بشر به فيه وله ولهم من الأجر ما لا يحصيه إلا الله ففوتوا هذا الأجر والثواب عليهم وعليه وله ولهم فيه الخير المستطاب واعتاضوا عن ذلك بما ضرهم

في الدنيا والآخرة   وإذا بين لهم قدر المسيح فقيل لهم ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام قالوا إن هذا تنقص بالمسيح وسب له واستخفاف بدرجته وسوء أدب معه بل قالوا هذا كفر وجحد لحقه وسلب لصفات الكمال الثابتة له ولعمري إن هذا إنما هو نقص لما في نفوسهم من الغلو فيه لا نقص لنفس المسيح الموجود في نفس الأمر   وفي ذلك من الحمد له والمدح وإعظامه والإيمان به وإعطائه الدرجة العلية ما ليس في الغلو فيه لأن في هذا تقرير كمال عبوديته التي هي كمال المخلوق وهذا هو الكمال فأما الغلو فيه إلى حد الربوبية فذاك خيال باطل لا كمال حاصل وفي إثبات العبودية له إيمان به وموافقة لخبره وأمره فيحصل له بذلك من الخير والرحمة ما لا يحصل له بالغلو فيه الذي هو كذب فيه مكذوب عليه ومعصية له وإشراك بالله وليس في ذلك ما ينفعه ولا ما يرفعه بل في ذلك ضرر على المشركين المفترين   وكذلك الغالية في علي رضي الله عنه ونحوه إذا بين لهم قدره وما ثبت عنه من أنه كان يقول خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر وقوله لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى قالوا هذا شتم لعلى وتنقص له وهذا عين الكذب بل هذا فيه من إثبات درجته وفضله ومعرفته بالحق وأهله وأمره للناس بالمعروف ونهيه لهم عن المنكر ما ليس في الكذب والغلو الذي ليس فيه منفعة له بل فيه ضرر على أهل الإفك والعدوان   وهكذا الغالية في الشيوخ بهذه المنزلة ولا سيما القادرية والأحمدية وكذلك كل غال كالذين يستغيثون بالموتى أو الغائبين والذين يطلبون حوائجهم من المقبورين ويجعلونهم وسائط ووسائل وشفعاء في قضاء تلك الحوائج بلا علم يدل على ذلك ويشرعون دينا لم يأذن به الله إذا ذكر لهم المشروع في حقهم من

الدعاء لهم عند زيارة قبورهم وغيرها والصلاة والسلام من أنواع الدعاء وأن ذلك تضاعف لهم به الرحمة والبركة وتضاعف أيضا للداعي الرحمة والبركة وأن سؤالهم شرك وغلو زعموا أن هذا تنقض بهم وسب لهم وإنما هو نقص لما في نفوس من غلا فيهم وأنزلهم عن منازلهم وفيه من الحمد لهم والرحمة والبركة ما لا يحصل لهم بما يفعلونه من الكذب والإشراك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل   وأما كون موسى وعيسى وجيهين عند الله كما قال تعالى وكان عند الله وجيها وقال عن عيسى إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين فذلك لا يوجب الغلو فيهما ولا في غيرهما من الرسل والأنبياء والصالحين ولا يبيح أن تبتدع لهم عبادة ودعاء لم يأذن الله فيه ولا أن ينقص من حقوقهم ومنازلهم التي أنزلهم بها والله تعالى لم يأذن لنا أن نسأل ميتا حاجة لا نبيا ولا غيره ولا يطلب منه جلب منفعة ولا دفع مضرة ولا أن نقصد بزيارة قبره إجابة دعائنا بل شرع لنا الإيمان بهم وبما جاؤوا به والسلام عليهم   فالذي شرع لنا قي حق الرسل فيه تحقيق توحيد الله وحده وتحقيق طاعتهم وفيه مزيد الرحمة لهم ورفعة الدرجة والرضوان لنا ولهم   والأنبياء لا ينقص عند الله جاههم بموتهم بل هم في مزيد من كرامة الله وإحسانه إليهم ورفع الدرجات لهم عند الله وليس في هذا ما يوجب أن نطلب منهم الحاجات بعد الموت كما كانت تطلب منهم في الحياة ولا أن يؤمروا وينهوا ذلك إذ قد علم بالاضطرار انقطاع هذا الحكم عن جميع الأموات فيظن هؤلاء الجهال الضلال أن مسألتهم والطلب منهم هو من باب رفع قدرهم وكذبوا ليس الأمر كذلك وإنما ذلك من باب التكليف لهم وهم يثابون على ذلك والمكلف لهم المؤذي يتضرر بذلك ويعذب به وإذا طلب سائلهم منهم حاجته لم يكن ذلك سبب

جاههم فإن ذلك يطلب ممن لا جاه له عند الله بل قد يطلب بعض المطالب من الكفار والفجار وكل من يرجون منه أن يقضي حاجتهم سألوه واستغاثوا به سواء كان ذلك السؤال جائزا في الشرع أو لم يكن وخواص أصحابه لم يكونوا يسألونه شيئا من ذلك والمؤمنون منهم يسألونه عند الحاجة والضرورة وأما من فيه جهل ونفاق فكانوا يسألونه ويلحون عليه ويؤذونه بالسؤال وهو يصبر على أذاهم ويعطيهم لله تعالى إحسانا إليهم وتألفا لقلوبهم واستجلابا لهم ليدخلوا في الإسلام أو يردهم بميسور من القول كما في حديث ابن أبي هالة أنه كان إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول وذلك لأن الله أمره بذلك فقال وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إ ن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا وقد عرف ما ورد في سبب نزول الآية من إعطائه السائل ما سأل حتى لحقه الضرر وكل ذلك كان وهو حي وبكل حال فالذي كان يسألهم و يطلب منهم سواء كان عاصيا لله أو غير عاص إنما كان يسألهم لاعتقاده أنهم قادرون عليه وعلى إعطائه سؤله وكم ممن كان يسأل الرسول ما ليس عنده و يؤذيه بذلك فالسؤال إنما كان لأجل اعتقاده القدرة على المسؤول لا لأجل الجاه و هكذا كل مسؤول من الخلق و مطلوب منه في دفع الضرر إنما يسأل و يطلب منه لاعتقاد قدرته على فعل المسؤول و إلا فعاقل من العقلاء لا يسأل أحدا ما يعتقد أنه لا يقدر عليه ولا يستعينه في أمر يعرف أنه لا يقدر على الإثابة فيه ولكن تارة الاعتقاد يصيب و يخطىء و الأمور نوعان نوع يطلب له منا و يجب له علينا و نوع يطلب لنا منه سواء أوجب عليه أو لم يجب فالواجب له علينا من الحقوق بعد الموت

الإيمان به و محبته و نصره و تعزيزه و توقيره و طاعة أمره و اتباع سنته و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه و تحقيق ذلك أن الله أمره بأشياء منها ما هو حق لله و منها ما هو حق للناس و الأمر يكون تارة أمر إيجاب و تارة أمر استحباب و كل ما أمر به مما فيه نفع للخلق ففيه حق لهم عليه كتبليغهم و تعليمهم و البيان لهم و أمرهم بكل معروف و نهيهم عن كل منكر و حضهم على كل ما يقربهم إلى الجنة و نهيهم عن كل ما يبعدهم عنها و تبيين كل ما يحتاجون إليه و أمثال ذلك و قد فعل ذلك و تركهم على البيضاء ليلها كنهارها وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لهم منه علما بأخباره و أوامره و نواهيه و كذلك كان يقوم بأخذ الصدقة من أغنيائهم و ردها على فقرائهم و إنصاف مظلومهم من ظالمهم و إطعام جائعهم و عيادة مريضهم و الصلاة على ميتهم و أمثال ذلك من أنواع إحسانه إليهم في جميع مصالح الدنيا و الآخرة فاجتمعت له صفات الكمال المتفرقة في غيره من الرسل و الأنبياء وولاة الأمر و غيرهم و كان له من خصائص النبوة و الرسالة ما لم يشركه فيه أحد بعده وكان يقوم بالإمامة في الصلاة و الإمارة في الغزو و إرسال البعوث و عقد الألوية و الشعائر في الحرب و إقامة الحدود و إيصال الحقوق و قسم المواريث و المغانم و الفيء و الصدقات و تعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف و الأحوال أو ما يقوم بالأبدان من الأقوال و الأعمال و إفتاؤهم فيما ينوبهم من المسائل و الحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا و تعبير الرؤيا و ما كان و ما يكون من أمر الدنيا و الآخرة و صفات الرب و ملائكته و أمر الآخرة و الجنة و النار إلى غير ذلك فهذه الأمور التي كان مأمورا بها أمر إيجاب أو أمر استحباب و كانت حقا عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء كما انتهى حق الله الذي أمره

به فلم يبق عليه شيء فجاهد في الله و نصح الأمة و عبد ربه حتى أتاه اليقين و أما ما كان حقا له على الأمة و منفعته في الحقيقة تعود عليهم و الله تعالى يثيبه بما يعملون به من طاعته مثل ثوابهم و يستجيب فيه صالح دعواهم فهو في الحقيقة حق الله و إن كان فيه حق للرسول فإن الله هو الذي أمرهم بما أمرهم به الرسول ومن يطع الرسول فقد أطاع الله فكل ما أمرهم به الرسول من واجب و مستحب فالله أمرهم به و إذا أطاعوا الله و رسوله فأجرهم على الله و إذا عصوا الله و رسوله فحسابهم على الله قال تعالى فإنما عليك البلاغ و علينا الحساب وقال فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى و كفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم و قال و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول فإن توليتم فإن على رسولنا البلاغ المبين ثم قال الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون فأمر بطاعته و طاعة رسوله لأن طاعته طاعة لله و أمرهم بالتوكل عليه وحده و طاعة الرسول هي عبادة الله وحده و الأمر و المعنى المتقدم من أن الرسول ليس عليه إلا ما أمر به من البلاغ المبين و الجهاد وليس عليه جزاء العباد ولا حسابهم ولا هدايتهم قد كرر في القرآن في مواضع و الحق الذي لله و للرسول باق بعد موت الرسول و كذلك ما كان من حقوقه التي يمكن بقاؤها كالصلاة عليه و التسليم و التعزير و التوقير فهي لم تنقص بعد موته بل توكدت و قويت بل حقوقه علينا بعد موته أكمل منها في حياته لم ينقص بموته كما قررناه في كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول و بينا أن تنقصه في حياته أو سبه فإنه كان له أن يعفو عن حقه فأما بعد موته فليس لأحد أن يعفو عن حقه ولا يسقط و كذلك في مغيبه فعلينا أن نقوم بحقوقه الواجبة علينا في حال مماته و مغيبه أكثر مما

علينا أن نقوم بها في محياه و حضوره و تلك حقوق علينا له و إذا فعلناها كانت عبادة منا لله أجرنا فيها على الله وهي مما يزيده الله بها من فضله من جهة امتثاله لما أمرنا به وهو داعينا و كلما أطعنا كان له مثل أجورنا و من جهة ما يصل إليه من الرحمة باستجابة الله دعاء الأمة مع ما يزيد الله إياه من فضله وهذه الحقوق الثابتة بعد موته هي تبع لرسالته فإنه هو السفير والواسطة بيننا و بين الله تعالى في تعليمنا و انتفاعنا بما علمنا من علم الله و خبره وفي أمرنا و إرشادنا إلى ما أمر الله به و أحبه و رضيه و بذلك حصل لمن آمن به و اتبعه سعادة الدنيا و الآخرة بل أعظم نعمة أنعم الله بها على المؤمنين أن أرسله إليهم و أنزل عليه الكتاب و من عليهم باتباعه فليس في الدنيا خير أعظم من هذا وقد سمى الله الشمس سراجا وهاجا و سماه سراجا منيرا و نعمة الله بالسراج المنير أنعم من نعمته بالسراج الوهاج من وجوه منها أن السراح الوهاج لصلاح بعض الأمور الدنيوية وهي فانية منقضية و السراج المنير لصلاح الدين و الآخرة مع صلاح الدنيا فإن وجود الشمس لا ينتفع به الآدميون في الدنيا إلا أن يكون لهم اجتماع و تعاون في المصالح و ذلك لا يتم إلا بشريعة تقيم بينهم قانون العدل ولم يطرق الوجود شريعة أعظم من شريعته صلى الله عليه وسلم فما يحصل بها من صلاح الناس في المعاد بعض نعمة منها خير من الدنيا وما فيها و أما ما يحصل بها من صلاح القلوب و الأرواح و الأبدان بالعلوم النافعة و الأعمال الصالحة و الهدى و دين الحق فهذا لا يحصل لا بشمس ولا بنحوها و كذلك ما يحصل بها بعد الموت من السعادة الأبدية التي لا نسبة لخير الدنيا إليها كما قال صلى الله عليه وسلم ما الدنيا في الآخرة إلا كما يضع أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم ترجع وهذا باب يطول وصفه فبالرسول عرفت

أسماء الله و صفاته و ما يستحقه من الأسماء الحسنى و الصفات العلى تارة بما بينه من الأمثال التي هي مقاييس عقلية و تارة بما يخبر به من الأنباء الصادقة النبوية و تارة بما يقصه عن الأنبياء الذين هم خير البرية وبه عرفت الملائكة و النبيون و الجنة و النار و قصص الأنبياء و أخبار الدنيا و ملاحمها و فتنها و أشراط الساعة و علاماتها و أخبار القيامة و تفاصيلها و غير ذلك و إذا قيس ما عند أمة محمد صلى الله عليه وسلم من العلم و الدين إلى ما عند أهل الكتاب مع أنه في الأصل دون ما عند المسلمين في الصفة و المقدار و بينهما تفاوت عظيم فقد دخله من التحريف و النسخ ما جعله كالريح العقيم و الضلال فيه راجح على الهدى و الشر فيه أكثر من الخير فالمتمسك بما عليه اليوم أهل الكتاب خاسر مستحق للخلود في النار كما قال صلى الله عليه وسلم و الذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولا يؤمن بي و بما جئت به إلا دخل النار و أما من عدا أهل الكتاب فعندهم من الجهل البسيط و المركب في المقال و الفعال ما لا يكاد يخطر ببال و ما عندهم من علم صحيح كالذي عند الفلاسفة من الحساب و أكثر الطبيعة و كثير من الهيئة و قليل من الإلهي هو و بعض المنطق فإنه لما صار إلى المسلمين هذبوه و نقحوه و تمموه و أوضحوه ومن تأمل كلام المتفلسفة الأوائل و كلام متفلسفة الإسلام وجد متفلسفة الإسلام أخبر و أدق و قلوبهم أعرف و ألسنتهم أنطق و ذلك لما عندهم من نور الإسلام زادوا في فلسفة أولئك زيادات إلهية و تقريرات نبوية و مقامات للعارفين و أمور من أحوال أولياء الله المتقين ليس لها في كتب أولئك الأوائل ذكر بحال ولا خطرت منهم على بال هذا مع أن هؤلاء المتفلسفة المتأخرون في الإسلام من أجهل الخلق عند أهل العلم و الإيمان و فيهم من

الضلال و التناقض ما لا يخفى على أذكياء الصبيان لأنهم لما التزموا أن لا يسلكوا إلا سبيل سلفهم الضالين و أن لا يقروا إلا بما يبنونه على تلك القوانين وقد جاءهم من النور و الهدى و البيان ما ملأ القلوب و الألسنة و الآذان صاروا بمنزلة من يريد أن يطفئ نور الشمس بالنفخ في الهباء أو يغطي ضوءها بالعباء وقد قال صلى الله عليه وسلم إنما أنا رحمة مهداة و منهم من يقول مهداة كالقاضي البرتي فليس لأحد أن يتكلم بما لا يعلم و إن كان قد جاء في الآثار عن السلف أن الموتى يدعون للأحياء و أن أعمالهم إذا عرضت دعوا لهم و أن النبي صلى الله عليه وسلم يدعو للأمة فهذا كله هو فاعل له بأمر الله و أمره له في غير دار التكليف أمر تكوين لا يتصور مخالفة المأمور كما أن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس و ليسوا مكلفين بذلك و كذلك استغفار الملائكة لبني آدم كما أخبر به القرآن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم و الملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه اللهم اغفر له اللهم ارحمه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه ومع هذا فلا يجوز لأحد أن يدعو الملائكة ولا يستغيث بهم ولا يطلب منهم ما أخبر الله به أنهم يفعلونه فإنها ذريعة إلى دعائهم من دون الله و الإشراك بهم و كذلك دعاء الموتى من الأنبياء و الصالحين ذريعة إلى ذلك بخلاف سؤال أحدهم في حياته و حضوره فإن ذلك لا يفضي إلى عبادته من دون الله لأنه لو رأى أحدا يفعل ذلك نهاه إذ الأنبياء و الصالحون لا يقرون أحدا على الشرك مع قدرتهم على نهيه و إنما يعبد أحدهم بعد موته و كذلك الصلاة خلف أحدهم من أفضل العبادات في حال حياتهم و بعد موتهم لا يجوز أن يصلى خلف قبورهم ولا أن تتخذ قبورهم مساجد ولا تستقبل في الصلاة كما في حديث أبي مرثد الغنوي لا تجلسوا على القبور و لا تصلوا

إليها رواه مسلم لأن ذلك ذريعة إلى الشرك و اصل الشرك إنما نشأ من القبور كما في الصحيح عن ابن عباس و الملائكة لا يراهم الناس فلهذا لا يطلب منهم الحوائج و أيضا فما تفعله الملائكة و الأنبياء بعد الموت هو أمر محدود يفعلون منه ما أمر الله به لا يزداد بسؤال السائلين فليس في سؤالهم إياه منفعة بل مضرة فنهى عنه لأنه شر لا خير فيه فصار بمنزلة أن يطلب الرجل من الشمس أن تصحبه و من الريح أن تهب و نحو ذلك و كذلك كل ما يؤمر بأمر تكوين لا يحتاج أن يطلب فإنه فاعله طلب أو لم يطلب و ما لم يأذن به الله فهو لا يفعله طلب منه أو لم يطلب بخلاف الشفاعة يوم القيامة فإن الناس يسألونه و سؤال الحي الحاضر يجوز في الدنيا و القيامة و إن كان الميت يسمع الكلام كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في أهل القليب ما أنتم بأسمع لما أقول منهم و ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الميت ليسمع قرع نعالهم حين يتولون عنه مدبرين و قال صلى الله عليه وسلم ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام رواه أبو عمر ابن عبد البر و صححه

و الشيء الذي لم يشرع تارة لا يشرع لعدم المنفعة فيه و تارة لوجود المضرة فيه و تارة لرجحان المضرة على المنفعة إذا اجتمعا و أما ما ترجحت مصلحته على مفسدته و منفعته على مضرته فإن الشارع لا يهمله إذ الشارع مبعوث بتحصيل المصالح و تكميلها و تعطيل المفاسد و تقليلها كما قد بسط في غير هذا الموضع وقد كان السابقون الأولون لا يكفلونه هذه الأثقال ولا يلحفون عليه في السؤال وهم أعظم قدرا و أعلى منزلة أفتراهم ما كانوا يعرفون ما له من الجاه و المنزلة أم لم يعلموا أنه سيد ولد

آدم صلى الله عليه وسلم و خير البرية حتى نبغ نابغة من أهل الجهل و الضلال المبتدعين فعكسوا الأمر كما عكسه من أشبهوه من النصارى فجعلوا معصيته طاعته و مخالفته اتباعا و تكريما و جعلوا كل ما يعلو به درجته خفضا و نقصا و جعلوا الشرك بالله دينا و قربة و جعلوا إخلاص الدين لله و ابتغاء الأجر و الثواب منه و الرغبة إليه دون غيره من فعل أهل الكفر الملحدين و الله تعالى هو الذي ينصر رسله و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و يوم يقوم الأشهاد   فليتدبر العاقل فعل من بدل دين الله و سلك سبيل المرتدين المنافقين الذين يجعلون الإيمان كفرا و السنة بدعة و الكذب صدقا و الباطل حقا و أولياء الله أعداءه و جند الله جند الشيطان كل ذلك مضاهاة لأهل الشرك و البهتان

فإن قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم يسمع خطاب البعيد والقريب

قيل ليس في هذا الحديث المعروف ما يدل على التسوية بين   القريب و البعيد في سمع خطابه بل الحديث يدل على نقيض ذلك المعروف في هذا الباب من الأحاديث يبين ذلك ففي السنن حديث أوس بن أوس رضي الله عنه الذي رواه أبو داود و غيره ورواه ابن حيان في صحيحه و الدارقطني في سننه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم و فيه قبض و فيه النفخة و فيه الصعقة فأكثروا علي من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي قالوا يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك و قد أرمت قال يقولون بليت قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء   و الحديث الذي رواه أحمد و أبو داود عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا و صلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني   و الحديث الذي

رواه النسائي و ابن حيان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام و روى أبو يعلى في مسنده عن موسى بن محمد بن حيان عن أبي بكر الحنفي حدثنا عبيد الله بن نافع حدثنا العلاء بن عبد الرحمن سمعت الحسين بن علي يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم صلوا في بيوتكم و لا تتخذوها قبورا و لا تتخذوا بيتي عيدا صلوا علي و سلموا فإن صلاتكم و سلامكم يبلغني أينما كنتم و روى الروياني في مسنده و البزار و غيرهما عن نعيم بن ضمضم عن عمران بن الحميري قال قال لي عمار بن ياسر قال نبي الله صلى الله عليه وسلم يا عمار إن لله ملكا أعطاه أسماع الخلائق فهو قائم على قبري إذا مت إلى يوم القيامة فلا يصلي علي أحد صلاة إلا سماه باسمه و اسم أبيه فقال صلى عليك فلان كذا و كذا فيصلي الرب على ذلك المصلي بكل واحد عشرا وقال أبو أحمد الزبيري حدثنا إسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد عن ابن عباس قال ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يصلي عليه صلاة إلا وهي تبلغه يقول له الملك فلان يصلي عليك كذا و كذا صلاة و قال ابن وهب أخبرني عمرو بن الحراث عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أيمن عن عبادة بن نسي عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة و إن أحدا لا يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ قال قلت و بعد الموت قال إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فهذه الأحاديث تدل على أن الصلاة و السلام يعرضان عليه و إن ذلك يصل حيثما كنا و في سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال ما من أحد يسلم علي إلا رد الله

علي روحي حتى أرد عليه السلام و هذا الحديث هو الذي اعتمد عليه العلماء كأحمد و أبي داود و غيرهما في السلام عليه عند قبره وهو الذي اعتمد في زيارة قبره إذ لم يكن معهم سنة يستندون إليها في زيارة قبره إلا هذا الحديث وبقية الأحاديث التي رويت في زيارة قبره ضعيفة بل موضوعة أكثرها وضعت بعد أحمد و أمثاله فهذه النصوص تدل على أنه يسمع سلام القريب و يبلغ سلام البعيد و صلاته لا أنه يسمع ذلك من المصلي المسلم و إذا لم يسمع سلام البعيد إلا بواسطة فإنه لا يسمع دعاء الغائب و استغاثته بطريق الأولى و الأحرى و النص إنما دل على أن الملائكة تبلغه الصلاة و السلام و الحديث الذي فيه ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام فهموا من هذا الحديث السلام عليه عند قبره خاصة فلا يدل على البعيد ثم نقول لا يخلو إما أن يكون الحديث عاما في سلام البعيد و القريب و إما أن يكون خاصا بالقريب فإن كان الثاني فلا حجة فيه على سماع خطاب البعيد بغير واسطة تبليغ الملائكة و إن كان الأول فالحجة فيه أضعف من وجهين أحدهما أنه حينئذ لا يبقى السلام عند قبره بخصوصه حديث ولا سنة أصلا بل لا يبقى فرق بين السلام عليه من القريب و البعيد كما لم يفرق بين الصلاة من القريب و البعيد لكن هذا خلاف ما عرف من السنة و خلاف ما عليه الأئمة من استحباب السلام عليه عند قبره فإنه قد سن إذا زار القبور زائر مطلقا أن يسلم عليهم و كان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم و يدعو لهم فكيف لا يسلم على الميت عند قبره و قد كان الصحابة يسلمون عليه عند قبره وقد كان ابن عمر يقول السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبت رواه مالك عن نافع عنه و رواه أحمد و غيره الثاني إن الذي في الحديث أن

الله يرد عليه روحه ليرد السلام وهذا قد يكون بتوسط تبليغ الملائكة وقد يكون بمباشرته هو سماع المسلم و إذا احتمل الأمرين فتعيين أحدهما مما يفتقر إلى دليل و الأحاديث المتقدمة تدل على أن صلاة البعيد و سلامه معروض عليه مبلغ إليه بواسطة الملائكة و ذلك ينفي السماع مباشرة من غير تبليغ فإن كان يسمع كلام المخاطب بنفسه لم يحتج إلى واسطة و المقصود هنا أن هذا المحتج لم يحرر أدلته تحريرا ينفي عنها الإجمال و الالتباس حتى يتبين ما فيها من الضلال و الإضلال لجميع الناس فإن قوله كل من سأل كلام مجمل أيريد به على كل من سأل الله بالمتوسل به تفريج كربة أو على من سأل الله و سأل المتوسل به أن يسأل الله أو على كل من سأل المستغاث به تفريج الكربة و إن لم يسأل الله فإن هنا أربعة معاني أحدها أن يسأل الله بالمتوسل به تفريج الكربة ولا يسأل المتوسل به شيئا كما يفعله من يتوسل بالأموات و الغائبين أو أن يسأل الله و يسأل المتوسل به أن يدعو له كما كان الصحابة يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء ثم من بعده بعمه العباس و بيزيد ابن الأسود الجرشي و غيرهما و الثالث أن يسأل المتوسل به أن يسأل الله له تفريج الكربة ولا يسأل الله هو و الرابع أن يسأل المستغاث به أن يفرج الكربة ولا يسأل الله فأما الأول فهو سائل لله وحده و مستغيث به و ليس مستغيثا بالمتوسل به إلا أن يريد بالاستغاثة السؤال به و حينئذ فيكون هذا المعنى مطابقا لمعنى السؤال به لكن تسميته استغاثة ليس من اللغة المعروفة و أما الثاني فهو استغاثة بالله و استغاثته بالشفيع أن يسأل الله هو توسل به أي بدعائه و شفاعته وهذا هو المشروع في الدنيا و الآخرة في حياة الشفيع و سؤاله أو في مشاركة الشفيع له في السؤال لا في حال انفراده هو

بالسؤال و كذلك الثالث إذا سأل المتوسل به المستشفع به أن يسأل الله كما يسأله الناس يوم القيامة فهذا لا ريب في جوازه و إن سمي استغاثة به و أما الرابع وهو أن يسأل المستغاث به تفريج الكربة فهذا استغاثة به ليس توسلا به بال المستغاث به مطلوب منه الفعل فإن لم ين قادرا على تفريج الكربة لم يجز أن يطلب منه ما لا يقدر عليه فالمعنى الأول سؤال به و ليس استغاثة أصلا و بعض الناس يسميه توسلا به و المعنى الثاني فيه استغاثة به و توسل به و المعنى الثالث فيه استغاثة في سؤال الله وليس فيه سؤال به و المعنى الرابع استغاثة في تفريج الكربة لكن لا يجوز ذلك من ميت ولا غائب ولا من حي حاضر إلا فيما يقدر عليه خاصة وليس هذا هو التوسل به و التوجه المشروع الذي كان الصحابة يفعلونه فإن ذلك إنما كان بدعائه و شفاعته حيا وقد نص غير واحد من أهل العلم على أنه لا يجوز سؤال الله بالأنبياء و الصالحين فكيف بالاستغاثة بهم مع أن الاستغاثة بالميت و الغائب مما لا يعلم بين أئمة المسلمين نزاع في أن ذلك من أعظم المنكرات ومن كان عالما بآثار السلف علم أن أحدا منهم لم يفعل هذا و إنما كانوا يتوسلون بدعائهم أحياء فيسألونهم أن يسألوا الله لهم مع سؤالهم هم الله كما قال عمر بن الخطاب اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون و كما في صحيح البخاري عن ابن عمر قال ربما قول الشاعر و أنا أنظر إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش له ميزاب و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل و كذلك قال معاوية بن أبي سفيان لما استسقى بيزيد بن الأسود الجرشي فقال اللهم إنا نستشفع أونتوسل إليك بخيارنا يا يزيد ارفع يديك فرفع يديه ودعا الناس

حتى سقوا فكانوا يسألون الله ويسألون الصالحين الأحياء منهم الحاضرين عندهم أن يسألوا الله لهم و لهم و منه قول الأعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نستشفع بك على الله ومنه قول الأعمى اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم وهل تنصرون و ترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واستغفارهم ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر بهم فالاستنصار والاسترزاق يكون بالمؤمنين بدعائهم مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل منهم لكن دعاؤهم وصلاتهم من جملة الأسباب وبذلك يتبين أنه من استسقى بشخص واستفتح به لا يجب أن يكون أفضل فإن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من صعاليك المهاجرين وكذلك عمر ومن معه من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أفضل من العباس لكن يقتضي أن يكون للمستنصر به والمسترزق مزية على غيره من الناس كقرابته بالرسول أو فضل ديانته على غيره من الناس في الجملة وهذا كقوله سبقك بها عكاشة وقوله إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وأهل الشورى وأمثالهم وإن لم يكن فيهم نص خاص بذلك بل سعد بن أبي وقاص كان مجاب الدعوة كما دعا له بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم أجب دعوته وسدد رميته وأبو بكر وعمر أفضل منه وإن لم يجئ فيهما نص خاص بذلك ومثل هذه الفضائل التي للمفضول تارة تكون ثابتة للأفضل و تارة يكون له ما هو أفضل منها مثل ما في حديث أويس فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل والمستغفر له أويس أفضل من أويس وكذلك في التابعين للصحابة بإحسان إلى يوم الدين

من هو أفضل من أويس وكذلك قصة موسى والخضر وموسى أفضل من الخضر وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب لما ودعه للعمرة لا تنسنا من دعائك فمن ادعى دعوى و أطلق فيها عنان الجهل مخالفا فيها لجميع أهل العلم ثم مع مخالفتهم يريد أن يكفر ويضلل من لم يوافقه عليها فهذا من أعظم ما يفعله كل جهول مغياق وما زال أهل العلم إذا انتهى النزاع بينهم إلى الألفاظ مع اتفاقهم على المعاني يقولون هذا نزاع لفظي والنزاع اللفظي لا اعتبار به يستهينون بالنزاع في الألفاظ إذا وقع الاتفاق على المعاني التي يعلقها الأيقاظ ولكن من كان نزاعه لفظيا وأوهم الناس أن النزاع فيما يتعلق بالأصول ويجعل ذلك من مسائل سب الرسول علم أنه ظلوم جهول و إن كان مصيبا في الإطلاق فكيف إذا كان ضالا مفتريا في اللفظ والمعنى جميعا والخوارج الذين كفروا عليا و عثمان رضي الله عنهما وجمهور أهل الإيمان متمسكون بظواهر من القرآن مع أنهم من أعظم الناس جهلا و ابتداعا وهم مع هذا أظهر حجة و أبين محجة من مثل هذا الضال وأمثاله الذين ليس لهم فيما يبتدعونه من الشرك سوى محض البهتان و الافتراء والاعتداء فلو كان توسلهم به في مماته كتوسلهم به في حياته لكان توسلهم به أولى به من توسلهم بعمه العباس ويزيد وغيرهم فهل كان فيهم في حياته من يعدل عن التوسل به والاستشفاع إلى التوسل بالعباس وغيره وهل كانوا وقت النوازل والجدب يدعونه ويأتون العباس أم هل يفعل هذا مؤمن فلو كان التوسل به في مماته كما كان في حياته لزم أن يكون المهاجرون والأنصار إما جاهلين بهذه التسوية وهذا الطريق أو أنهم سلكوا في مطلوبهم أبعد طريق و كلاهما لا يصفهم به إلا من كان من جنس الرافضة الأراذل القادحين في أولئك الأفاضل ثم سلف الأمة و أئمتها و

علماؤها إلى هذا التاريخ سلكوا سبيل الصحابة في التوسل في الاستسقاء بالأحياء الصالحين الحاضرين ولم يذكر أحد منهم في ذلك التوسل بالأموات لا من الرسل ولا من الأنبياء ولا من الصالحين فمن ادعى أنه علم هذه التسوية التي جهلها علماء الإسلام و سلف الأمة و خيار الأمم و كفر من أنكرها و ضلله فالله تعالى هو الذي يجازيه على ما قاله و فعله و ألفاظ حديث الأعمى تدل على أن ذلك المشروع إذا كان الرسول حيا مسؤولا سائلا لله فإن في أول الحديث أن الأعمى طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ولم يطلب منه غير ذلك ثم إن النبي مع دعائه له أمره أن يتوضأ و يصلي و يقول اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد وفي رواية بنبيي محمد نبي الرحمة و هذا سؤال محض لله و حديث الأعمى رواه الترمذي و النسائي و الإمام أحمد و صححه الترمذي و لفظه أن النبي صلى الله عليه وسلم علم رجلا فيقول اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد يا رسول الله إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي اللهم فشفعه في و روى النسائي نحوه و في الترمذي و ابن ماجة عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني فقال إن شئت دعوت و إن شئت صبرت فهو خير لك فقال فادعه فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه و يدعو بهذا الدعاء فذكر نحوه قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح و رواه النسائي عن عثمان بن حنيف و لفظه أن رجلا أعمى قال يا رسول الله ادع الله أن يكشف لي عن بصري قال فانطلق فتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيي محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصري اللهم فشفعه في قال فرجع وقد كشف

الله بصره   وقال أحمد في مسنده حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد الخطمي المديني قال سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله ادع الله أن يعافيني فقال إن شئت أخرت ذلك فهو أفضل لآخرتك و إن شئت دعوت لك قال بل ادع الله لي فأمره أن يتوضأ و أن يدعو بهذا الدعاء اللهم إني أسألك و أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضي لي الله فشفعني فيه و شفعه في قال ففعل الرجل فبرأ   فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء فمن الناس من يقول هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقا حيا و ميتا وهذا يستدل به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه و يظنون أن توسل الأعمى و الصحابة به في حياته كان بمعنى الإقسام به على ربه أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته ولا يحتاج هو أن يدعو لهم ولا إلى أن يطيعوه و يظنون أن كل من توسل بالرسول كما توسل به ذلك الأعمى مشروع له وقول هؤلاء باطل شرعا وقدرا فلا هم موافقون لشرع الله ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله   و منهم من يقول هذه قضية عين فيثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها والفرق ثابت شرعا وقدرا بين من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وبين من لم يدع له فلا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر وهذا الأعمى شفع له النبي صلى الله عليه وسلم ولهذا قال في دعائه الله فشفعه في فعلم أنه شفع فيه وكذلك قوله إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك قال ادع لي فدعا له وقد أمره أن يصلي ويدعو هو لنفسه أيضا فحصل الدعاء من الجهتين   وكذلك قول عمر في استسقائه بالعباس فالنبي صلى الله عليه وسلم علم رجلا أن يتوسل به

في حياته كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلا عنه فلو كان التوسل به حيا وميتا سواء والمتوسل به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له لم يعدلوا عن التوسل به وهو أفضل الخلق و أكرمهم على ربه و أقربهم وسيلة إليه و كذلك لو كان كل أعمى يتوسل به و إن لم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى و لو أن كل أعمى دعا بدعاء ذلك الأعمى و فعل كما فعل من الوضوء و الصلاة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم و إلى زماننا هذا لم يوجد على وجه الأرض أعمى فعدول عمر و الصحابة عن هذا إلى هذا و ما يشرع من الدعاء و ينفع عما لا يشرع ولا ينفع و ما يكون أنفع من غيره و هم في وقت ضرورة و مخمصة و جدب يطلبون تفريج الكربات و تيسير الخير و إنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه و لهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه و حديث الأعمى إنما ظهر للناس بسبب كلامنا ومن جهة أصحابنا اتصل علمه إلى هؤلاء المبتدعة فإن الفقيه أبا محمد بن عبد السلام لم يقف على هذا الحديث ولم يعرف صحته فإنه علق الجواب بجواز التوسل به صلى الله عليه وسلم على صحته فكأنه لم يصح عنده إما لعدم علمه بتصحيح الترمذي له أو أنه أطلع فيه على قادح معارض ولولا الإطالة لتكلمنا على ذلك فنحن لا حاجة بنا إلى شيء من ذلك فإنا بالحديث عاملون و له موافقون و به عالمون و الحديث ليس فيه إلا أنه طلب حاجته من الله عز وجل ولم يطلبها من مخلوق و نحن إلى الله تعالى نرغب و إياه نسأل فهو المدعو المسؤول كما أنه المعبود المستعان لا نشرك به شيئا فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين

الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ولو قال العبد أنا أقول في دعائي يا رب يا رب كما قالت الأنبياء ولا أقول يا سيدي و إن كان الله هو السيد إذ قد كره مالك و غيره من العلماء أن يقول العبد هذا و أمروا أن يقول كما قالت الأنبياء فصل من شك في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة فهو مبتدع ضال بعد البيان و البرهان وهذا و أمثاله قد ظهر عنهم من الكذب و الافتراء ما قد تواتر عند المشايخ و العلماء و الملوك و الأمراء فلم يبق الكذب والبهتان منهم أمرا غريبا ولا فعلا عجيبا وهم في الكذب تارة يتعمدونه و تارة لجهلهم يخطئون لأنهم لا يحققون ما ينقلونه كنقلهم الأحاديث و الآثار و اللغة و الأحكام فتراهم يكذبون فيها ضلالا و جهلا لقلة العلم و التثبت و عدم التحقيق و اتباع الأهواء و الخروج عن الطريق و الخبر الذي لا يطابق مخبره إذا كان صاحبه غير مجتهد يسمى كذبا و يذم على ذلك و إن اعتقد صدق نفسه كما في الصحيح أن سبيعة الأسلمية لما ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم أن أبا السنابل بن بعكك قال لها لما مات زوجها وهي حامل فولدت ما أنت بناكحة حتى تمر عليك أربعة أشهر و عشر فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذب أبو السنابل ومنه ما جاء في الصحيح أن سعد بن عبادة قال يوم فتح مكة اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة فقال ذلك أبو سفيان للنبي صلى الله عليه وسلم فقال كذب سعد بل اليوم يوم يعظم فيه الكعبة و منه قول عبادة بن الصامت لما قيل له إن أبا محمد زعم أن الوتر واجب فقال كذب أبو محمد و كذلك قول ابن عباس لما قيل له إن نوفا البكالي يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس هو صاحب الخضر فقال كذب نوف فما زعمه هذا و أمثاله من أنا شككنا الناس في شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم

كذب منه فإنا لم نشكك أحدا في شفاعته في الدنيا ولا في الآخرة ولا شككوا في شيء من دين المسلمين ولا في مسألة واحدة مما دلت عليها الأدلة الشرعية و إنما شككوا بل توبوا مما عليه أهل الشرك و الكذب و الافتراء و البدع و الضلال من العبادات و الأدعية المبتدعة التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة وهي ليست مما شرع الله لعباده بل فيها من الإشراك بالله و اتخاذ الأنداد و الشركاء من دونه و الغلو في الدين و إيذاء أنبيائه و أوليائه و تضييع حقوقهم و مخالفة طريقهم و عصيان أمرهم و مفارقة هديهم و الابتداع في دينهم ما ليس من دين المسلمين دع ما يستلزم ذلك من فعل الفواحش المنكرات و العدوان على الخلق وأكل أموالهم بالباطل و عمى القلوب بالضلال و الغي فإن البدع في الدين سبب الفواحش و غيرها من المنكرات كما أن إخلاص الدين سبب التقوى و فعل الحسنات قال تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون و قوله لعلكم تتقون متعلق بقوله اعبدوا ربكم لعل التقوى تحصل لكم بعبادته كما قال تعالى كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون و من قال إن هذا مثل قوله تعالى وما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون و أن المعنى خلقكم لعلكم تتقون فقوله ضعيف لأن الله أمرهم بالعبادة التي خلقوا لها كما ذكره في تلك الآية ولو أراد هذا المعنى لقال ليتقوا كما قال هنا ليعبدون وقد قال لعلكم تتقون لا تفعل الشيء مترجيا لعاقبته فإنه عالم بالعواقب و لكن يأمر العباد بفعل الشيء لما يرجون من عاقبته كما قال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فهما قالا ذلك راجيين منه التذكرة و الخشية لا أن الله يرجو ذلك مع علمه تعالى بأنه لا يتذكر ولا يخشى وقال الذي خلقكم و الذين من قبلكم لعلكم تتقون ولا

يجوز أن تكون تقواهم هي الغاية المطلوبة من خلق الأولين و الآخرين بل كل إنسان مطلوب منه أن يعبده وإن لم يعبده غيره و كان تعليله أن يقال لعلكم الذي خلقكم و الذين من قبلكم وقوله اعبدوا ربكم أي أخلصوا له العبادة فإن ذلك سبب التقوى كما قال عن يوسف عليه السلام كذلك لنصرف عنه السوء و الفحشاء إنه من عبادنا المخلصين وقال تعالى إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر وقال تعالى إلا عبادك منهم المخلصين فتبين بذلك أن عباد الله المخلصين لا يغويهم الشيطان و إنما يغوي من أشرك بالله كما قال تعالى إنما سلطانه على الذين يتولونه و الذين هم به مشركون و قال تعالى إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون و إذا فعلوا فاحشة الآية فالتوحيد أصل كل خير و جماعة و الشرك أصل كل شر و جماعة و الموجبتان من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار و لهذا لما جمع سبحانه و تعالى بين ما أمر به و بين ما حرمه في قوله تعالى قل أمر ربي بالقسط و أقيموا وجوهكم عند كل مسجد و ادعوه مخلصين له الدين ثم قال تعالى قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها و ما بطن و الإثم و البغي بغير الحق و أن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا و أن تقولوا على الله ما لا تعلمون فصل و أما ما ذكره بأنه استباح نفي صفة من صفات الكمال عن النبي صلى الله عليه وسلم فكذب باطل لم ينف شيئا من صفات الكمال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صفات الكمال قائمة به من العلم و الإيمان و النبوة و الرسالة و ختمها و لوازم ذلك بل و سائر ما خصه الله به من الخصائص التي فضله بط على إخوانه من المرسلين قد علم أن أهل العلم و الإيمان و التوحيد أعلم بها و أعظم إثباتا لها من أهل الشرك و الجهل و الضلال بل

وهم يعجزون في كثير من المواضع أن يردوا على النصارى ما هم فيه من الشرك و الجهل لمشاركتهم لهم في ذلك بل قد يزيدون أشياء لا تستجيزها النصارى ومن أظهر الإسلام وكان منافقا فهو شر من النصارى كما كان المنافقون من الملاحدة و القرامطة الباطنية و نحوهم ممن هو في الباطن لا يقر بما يقر به اليهود و النصارى من أصل التوحيد و الرسالة و المعاد و الأعمال الصالحة و إن كان أهل الكتاب قد كفروا من ذلك بما صاروا به كافرين كما قال تعالى إن الذين كفروا بالله و رسله و يريدون أن يفرقوا بين الله و رسله الآية فالمنافقون الذين لم يقروا في الباطن بأصل ذلك شر من أهل الكتاب كما قال تعالى إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار و من كان مشاركا لهم فيما ذمهم الله عليه فهو شر منهم أو في بعضه ففيه من الشبه بهم الذي يستحق به الذم بقدر ذلك و من قال ما يعلم من دين الإسلام خلافة فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب و إلا قتل باتفاق الأئمة رضي الله عنهم و أصل الكفر والشرك مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وهؤلاء الجهال فيهم من الشرك و مخالفة الرسول ما لا خفاء به على المؤمن العليم وهم فيه على درجات منهم من يأتي بالشرك البين و الإنكار البين لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا يستتاب باتفاق الأئمة و منهم من هو مخطئ في دقيق ذلك و منهم من هو بين هذا و هذا إما فاسق و إما عاص فكيف يقاس هؤلاء بخلفاء الرسل وورثة الأنبياء المتبعين ملة إبراهيم المحضة قال تعالى و من أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن و اتبع ملة إبراهيم حنيفا و اتخذ الله إبراهيم خليلا وقال تعالى إن أولى الناس بإبراهيم للذي اتبعوه و هذا النبي و الذين أمنوا و الله ولي المؤمنين و إذا قال هذا الرجل عنهم إنهم نفوا الاستغاثة به مطلقا فهو

كذب عليهم و إنما نفوا الاستغاثة به و بسائر الموتى في حال موتهم أو حال مغيبهم و إذا قدر أن سائلا سأل عالما هل يستغاث بالرسول صلى الله عليه و سلم في حال موته فقال لا يستغاث به كان جوابه المطلق مقيدا بسؤال السائل له و إذا ذكر كلام من استغاث به بعد موته أو نظم شعرا في الاستغاثة به في حال موته فأنكره أهل الإيمان على هذا المستغيث به بعد موته كانوا منكرين لهذه الاستغاثة المقيدة لا المطلقة وقال في الرد إذا كنت قد جعلت الاستغاثة هي طلب الغوث كالاستعانة و الاستنصار و أنه يجوز إسنادها إلى المخلوق مطلقا فيستغاث بالمسلم و الكافر والبر والفاجر كما يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستنصر به كما قال النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر لم تكن الإغاثة من خصائص المؤمنين فضلا عن أن تكون من خصائص النبيين أو المرسلين وحينئذ فإذا قدر أن أحدا نفاها كما افتريته فإنما نفى وصفا مشتركا بين جميع الآدميين ونافيها عنه لا يتصور أن يخصه بالنفي والحالة هذه فإن هذا لا يقوله مؤمن ولا كافر فإن الكافر به لا ينازع أنه من الآدميين فإذا كان المنفي عنه لا يختص به كان نفيه عنه نفيا له عن سائر الآدميين وصار ذلك بمنزلة أن يقال لا يستغاث أحد من الآدميين ولا يستنصر به ولا يستعان وقائل هذه العبارة إما أن يريد بها ما يريده الناس من هذه العبارة عند الإطلاق من تحقيق التوكل والتوحيد بأن العبد لا يسأل إلا الله ولا يطلب النصر المطلق والغوث المطلق والإعانة إلا من الله تعالى فهذا معنى صحيح وأما الأول فهو صحيح إذ المقصود أن المخلوق لا يسأل فإن الله لم يأمر أحدا بسؤال المخلوق شيئا وإن كان المخلوق يجب عليه أن ينصر أخاه ويعينه ويغيثه فذلك يطلب منه من حيث أمره الله به كما يؤمر بسائر ما أمر

الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يجب أن يطلب منه على جهة السؤال له والذل والخضوع والتضرع له كما يسأل الله تبارك وتعالى بل مسألة المخلوق هي في الأصل محرمة وتباح عند الحاجة والأفضل الاستعفاف عنها مطلقا وأما السؤال عن العلم فلا ريب أن السائل قد وجب عليه أن يطيع العالم فيما يخبره به من أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما وجب على العالم أن يخبره بأمر الله ورسوله والسؤال هنا من باب التعاون على البر والتقوى كصلاة الجمعة والجماعة والجهاد والتعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالسائل للعالم في الحقيقة يذكر له ما يوجب عليه بيان العلم كما يذكر له العالم ما يوجب عليه قبول ما يقوله العالم بخلاف سؤال ما يختص به السائل من مال ونفع فكلامه يقتضي أن الاستغاثة بالمخلوق ليست واجبة ولا مستحبة ولا مباحة فإن قوله تعالى فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه لا يقتضي أنه شرع لنا وجوبا ولا استحبابا مثل هذه الاستغاثة بل ولا يقتضي الإباحة فإن هذا الإسرائيلى ليس ممن يحتج بأفعاله بل ولا في الآية ما يقتضي أن هذا المستغيث بموسى كان مظلوما بل لعله كان ظالما وموسى لما أغاثه فقتل عدوه ندم على ذلك وقال هذا من عمل الشيطان ثم قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له ثم قال فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين فشهد فيه موسى بأنه غوي وكذلك قول الشيطان لإتباعه ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي أي بمغيثكم وما أنتم بمغيثي فهذا ينفي وجود الإغاثة ولو كانت واقعة لم يكن فعل الشيطان وأتباعه دليلا على جواز ذلك في الشرع وإن سمي ذلك في اللغة استغاثة وقول هاجر أغث إن كان عندك خير أو غواث إن جعل قولها حجة في الشرع

فإنما يدل على الجواز وإن لم يجعل حجة في الشرع وهو الصواب فإنها ليست نبية فلا يدل على جوازه   وأما قوله اسقنا غيثا مغيثا فإنه إنما يدل على تسمية المطر غيثا وهذا أمر لغوي فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستغث بالمطر وإنما استغاث بالله فقال اللهم أغثنا حتى نزل المطر الذي يسمى مغيثا لما فيه من إزالة الشدة والأفعال تضاف إلى المخلوق بجهة وتضاف إلى الخالق بجهة أتم منها   وأما فعل البهيمة فهو كرامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزة أكرمه الله بها وإلا فأفعال البهائم لا تصلح بمجردها شريعة لبني آدم لكن يقع الاستدلال بها من باب التنبيه كما في قوله صلى الله عليه وسلم العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه وليس لنا مثل السوء   فإذا كان فعل الآدمي مما يذم من فعل البهائم نهي عنه وكذلك إذا صدر من البهيمة ما تحمد عليه يقال فالآدمي أحق بذلك وإذا كانت البهائم والجمادات تعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن أحق بتعظيمه كما قال الحسن البصري في حنين الجذع إذا كان الجذع يحن إليه فأنتم أولى بالحنين إليه   وهذا حسن لكن تعظيمه إنما يكون بطاعته و متابعته و معاونته و ما فيه زيادة لثوابه و رفع لمنزلته وهو مراد الحسن و غيره لا بأمور مبتدعة لا سيما إذا كانت من باب الشرك و فيها تكليف له فإن سؤاله في حياته و إن كان جائزا في الجملة فليس من باب التعظيم له والا التوقير ولا من فعل خيار أصحابه و إنما كان ذلك أهل الجفاء كالأعراب ومن هو حديث عهد بالإسلام دون أكابر المؤمنين و إن وقع ذلك منهم وقع قليلا   ولو قدر أن الاستغاثة بالمخلوق و سؤاله و الطلب منه واجب أو مستحب أو مباح فالكمال ليس في استغاثة المستغيث و طلب الطالب بل هو في فعل المستغاث به فإذا فعل المطلوب و أغاث المكروب كان ذلك من كماله فمن

نفى عن شيء من المخلوقين خصائص الخالق لا يقال إنه نفى عن المخلوق صفة من صفات كماله فإذا قال ليس أحد من المخلوقين لا ملك و لا نبي ولا غيرهما لا ربا و لا خالقا للخلق و لا مالكا للملك ولا هو بكل شيء عليم ولا على كل شيء قدير و نحو ذلك لم يكن نفى عن المخلوق شيئا من صفات كماله بل نفى عنه ما ليس إلا لله وحده وهذا من تحقيق التوحيد لله وهو أن ينفي عن خلقه كلهم ما لا يكون إلا له فيقول لا إله إلا الله فلا تصلح الإلهية إلا له بل الخلق كلهم عباده فصل و قوله لقد خشيت على كثير من أهل الإقليم بسبب تقاعدهم عن نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم بإهلاكه و إهلاك أمثاله خصوصا أهل الدولة و أصحاب الحكم إلى آخره فيقال كنت قد أجبت عن كلامه إلى هذا الموضع و اتفقت أمور شغلت عن تمام ذلك حتى أنزل الله بأسه بهذا الجاهل الظالم و حزبه الجاهلين الظالمين و كانوا في ذلك نظير المستفتحين من المشركين وهذا الوعيد الذي ذكره في كلامه به و بأحزابه أليق وهم به أحق و هكذا فعل الله تعالى بهم حيث عاقبه و حزبه عقوبة المعتدين الظالمين عقوبة لم يعاقب بها أحدا من أشكالهم وهؤلاء مضاهون للمشركين الذين ناظروا إمام الحنفاء إبراهيم صلوات الله عليه و سلامه كما قال تعالى فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إلى قوله إن ربك حكيم عليم فإنهم خوفوا إبراهيم بمن عبدوه من دون الله فقال لهم ولا أخاف ما تشركون به فإنه ليس للمؤمن أن يخاف إلا الله فلا يستحق ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يخشى و يتقى كما لا يستحق أن يصلي له و يصام بل هذا كله لا يصلح إلا لله وحده لا إله إلا هو ثم قال الخليل إلا أن يشاء ربي شيئا وهذا استثناء مقطع أي لكن إن شاء ربي شيئا كان فأنا أخاف ربي ثم قال و كيف أخاف ما أشركتم من المخلوقات و أنتم

لا تخافون إشراككم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا يقول فكيف لا تخافون أنكم عبدتم غير الله بغير سلطان من الله و هكذا يقول أتباع إبراهيم الخليل الذين هم على ملته لمن خرج عنها من أشباه النصارى و غيرهم كيف نخاف ما أشركتموه و دعوتموه من دون الله كائنا من كان سواء كان ملكا أو نبيا أو شيخا أو غيره و أنتم لا تخافون الله حيث دعوتم غيره بغير سلطان من الله فإن هذا الذي تفعلونه بدعة لم يأمركم الله بها ولا رسوله وفيها من الشرك ما فيها ولو لم يكن فيها شرك فكيف يسوغ لكم أن تشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله و معلوم أن من شرع عبادة يتقرب بها إلى الله و يجعلها وسيلة له إلى الله يرجو عليها ثواب الله إما واجبة أو مستحبة فلا بد أن يكون من الدين الذي شرعه الله و أمر به و إلا كان حظ صاحبها الإبعاد و الطرد و لهذا قال الفقهاء العبادات مبناها على التوقيف و الاتباع لا على الهوى و الابتداع وقد قال الله لنبيه إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا و داعيا إلى الله بإذنه فهو داع إلى الله بإذن الله لا من تلقاء نفسه بل أمر الله له و هؤلاء داعون إلى غير الله بغير إذن الله فيقال لهم ائتماما بإمام الحنفاء إبراهيم الذي يجب على كل مسلم أن يأتم به و كيف نخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون قال الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون و الظلم هنا هو الشرك كما في الصحيح من حديث ابن مسعود فتبين أن أهل الإخلاص أحق بالأمن من أهل الإشراك به قال تعالى سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا فغاية الأمر ما قد أقر به هذا الرجل على نفسه و على أصحابه لما خاطبه بعض أصحابنا فقال أنتم نسبتمونا إلى الشرك و نحن

ننسبكم إلى التنقص بالرسول فغاية الأمر أن ما يدعيه على منازعيه تنقص بالرسل وهم يقولون عنه و عن أمثاله إنهم مشركون و معلوم أن الشرك أعظم الذنوب كما أن التوحيد أعظم الحسنات كما في حديث ابن مسعود في الصحيحين قال قلت يا رسول الله إي الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك إلى آخره وقد قال الله تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به الآية و الأية الأخرى فأخبر أنه لا يغفر الشرك و ما دونه موقوف على المشيئة و أعظم ما دعا الله الخلق إليه في كتابه و دعت الرسل هو التوحيد و أعظم ما نهى عنه الشرك وهو أصل دعوة الرسل و أساسها و رأسها و أكمل ما فيها و به بعث الله جميع الرسل كما قد صرح به القرآن في أكثره فهو مملوء به وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أول ما دعا المشركين إلى كلمة التوحيد و أن بالإقرار بها يصير الرجل مسلما و بالامتناع عنها يصير كافرا و أنه قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فلا يصير الرجل مسلما حتى يشهد هذه الشهادة فإنها رأس الإسلام فهي واجبة في كل خطابة فكل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذمى و لهذا وجبت في التحيات و سميت التحيات تشهدا باسم التشهد الذي فيها و بها ختمت التحيات و روى الترمذي و أبو حاتم و الحاكم في المستدرك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الذكر لا إله إلا الله و أفضل الدعاء الحمد لله وفي الموطأ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك و له الحمد وهو على كل شيء قدير و عليها شرع الجهاد الذي هو سنام العمل كما قال تعالى و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله و في الآية الأخرى و يكون الدين كله لله و أهل هذه الكلمة هم

السعداء فمن مات عليها دخل الجنة كما ثبت في صحيح مسلم عن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة وفي السنن عن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة و في المسند عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب قال يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله قال عمر و أي كلمة أفضل من كلمة ألاص بها النبي صلى الله عليه وسلم عمه أبا طالب وهذا باب واسع فلا يعرف في دين الأنبياء و المرسلين و أتباعهم من الأولين و الآخرين ولا كتب رب العالمين أمرا أعظم من التوحيد وهو أول الكلمات العشر التي في التوراة و نظيرها الوصايا العشر التي في آخر الأنعام و أهل التوحيد هم المستحقون للشفاعة يوم القيامة كما ثبت في الصحيح أن أبا هريرة رضي الله عنه قال يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه وقد ثبت أن الشرك جنس تحته أنواع و كله مذموم وإن كان بعضه أكبر من بعض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من حلف بغير الله فقد أشرك وقد روى ابن حبان في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل فقال أبو بكر الصديق فما المخرج منه يا رسول الله فقال قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك و أنا أعلم و أستغفرك لما لا أعلم و الشرك له شعب تكبره و تنميه كما أن الإيمان له شعب تكبره و تنميه و إذا

كان كذلك فإذا تقابلت الدعوتان فمن قيل إنه مشرك أولى بالوعيد ممن قيل فيه إنه ينتقص الرسول فإن هذا إن كان مشركا الشرك الأكبر كان مخلدا في النار وكان شرا من اليهود و النصارى و إن كان مشركا الشرك الأصغر فهو أيضا مذموم ممقوت مستحق للذم و العقاب وقد يقال الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر و لا أصغر على مقتضى عموم القرآن و إن كان صاحب الشرك الأصغر يموت مسلما لكن شركه لا يغفر له بل يعاقب عليه وإن دخل بعد ذلك الجنة و بالجملة فالشرك أعظم من التكذيب بالرسالة و لهذا كان المشركون أكفر من اليهود و النصارى المكذبين برسالته فكيف بما يقال إنه تنقص و النبي صلى الله عليه وسلم كان يقتل المشركين ولا يقتل المتنقصين وقد قال له ذو الخويصرة اعدل فإنك لم تعدل وقال له بعض الناس إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ونحو ذلك فلم يقتل أحدا ممن تنقصه و آذاه ممن دخل في الإسلام و إن كان يجب قتل من يقول هذا اليوم لكون الحق في حياته كان له فأسقطه كما قد بسطناه في كتاب الصارم المسلول و المقصود أن ما يجب قتل صاحبه بكل حال أعظم ممن ليس كذلك و سيئته أعظم من سيئة المنتقص لرسول الله صلى الله عليه وسلم و يقال أيضا منازعوه يقولون قول هذا القائل قول يتضمن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم و الطعن في دينه و أمره و أذى الله و رسوله و ذلك أعظم من التنقص باتفاق المسلمين ولهذا يقال كل مشرك مكذب برسول الله متنقص به و ليس كل من كذب الرسول صلى الله عليه وسلم أو تنقصه يكون مشركا فصار قوله متضمنا لتنقص الرسول مع الشرك عند منازعيه و قولهم لم يتضمن عنده إلا مجرد التنقص فكان ما يذكرونه من الوعيد لحزبه أعظم مما يذكر هو من الوعيد و الناس متنازعون في أهل الكتاب هل

يدخلون في المشركين أم لا كما في قوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن وهل هم مشركون أم لا و التحقيق أن أصل دينهم ليس فيه شرك لكن ابتدعوا نوعا من الشرك و لهذا قال تعالى لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين فجعل المشركين غير أهل الكتاب وقد قال تعالى اتخذوا أخبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله و المسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون فأخبرهم أنهم أشركوا فإن قيل هؤلاء لم يتعمدوا الكذب و الطعن في دينه بل هم متأولون ظانون أن ذلك تعظيم له فلا يكونون كفارا قيل و كذلك قاله من قصد الإيمان به وما جاء به من التوحيد و قصدوا متابعته و طاعته لم يقصدوا التنقص به لو كان لازم ما قالوه تنقصا في نفس الأمر لهم أولى بالعذر منهم فقوله مع الشرك يتضمن أذى الله و رسوله و المؤمنين وقولهم فيه تعظيم لله و رسوله أما أذى الله فإنه قد ثبت في الصحيح لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له ولدا و شريكا وهو يعافيهم و يرزقهم و قوله يتضمن من إثبات الأنداد لله ما يوجب ذلك و أما أذى الرسول فإن سؤاله ما لا يقدر عليه أذى له و عدوان عليه و أيضا ترك العمل بسنته و شرعته ينقص الثواب الواصل إليه فإن الأمة إذا عملت بسنته كان له مثل أجورهم فمن عمل بما قرره من التوحيد والسنة أثابه الله على ذلك ثوابا عظيما وكان للرسول مثل ذلك الثواب ومن صد الناس عن هذا منع هذا الأجر أن يصل إلى الرسول فهؤلاء المشركون مؤذون للرسول من جهة جلب ما يضره إليه ومنع ما ينفعه عنه وأما أذاهم للمؤمنين فنهيهم لهم عن توحيد الله وطاعة رسوله وذمهم على ذلك وشتمهم فهم ممن قال الله تعالى فيهم والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما

مبينا وأما أهل التوحيد فإذا فعلوا ما جاءت به السنة وحدوا الله بإيمانهم وطاعتهم وسؤالهم له وحده لا شريك له حصل للرسول مثل ثوابهم وكانوا متبعين لأمره مريحين له من أذاه بسؤاله وفي هذا من جلب ما يسره إليه ودفع ما يضره عنه ما هو من تمام تعزيزه وتوقيره الواجب على أمته له ومن المعلوم أن تصديق الرسل وطاعتهم خير من الغلو فيهم بلا تصديق ولا طاعة وقد وقف هذا الرجل على الكتاب الذي صنفه المجيب في ساب الرسول واعترف أنه ما رأى في هذا الباب مثله فكيف يسوغ له مع هذا أن ينسبه إلى نقيض ذلك ولو قدر أن هذا في نفس الأمر تنقص فهو مما تكلم فيه صاحبه بالاجتهاد وقد أجمع المسلمون على أن مسائل الاجتهاد لا تدخل في السب الذي يستحق صاحبه الوعيد والقاضي عياض من أعظم الناس قولا بالعصمة وأشدهم على الساب وقد ذكر أن نفاة العصمة ونحوهم لا يدخلون في السب الموجب للحد وإن قدر أن قولهم يتضمن تنقصا ونظائر هذا كثيرة مثل تنازع الناس هل يصلى عليه عند الذبيحة فأكثرهم لا يستحبون ذلك بل مذهب مالك واحمد المنصوص عنه كراهته ومنهم من يستحبه كقول الشافعي وبعض أصحاب أحمد وكذلك تنازعهم في وجوب الصلاة عليه في التشهد الأخير هل هو ركن أو واجب أو مستحب فيه نزاع مشهور وأكثر العلماء لا يوجبونه ولا يقال إن من كره الصلاة عليه في مواطن أو لم يوجبها إن هذا تنقص به وكذلك تنازع العلماء هل كان يستحق الصفي في حياته وهل كانت أربعة أخماس الغنيمة ملكا له وهل كان الفيء ملكا له ولا يقال إن من نفى ملكه لذلك فقد تنقصه وتنازعوا في بوله وغائطه فجمهور المسلمين من الأولين والآخرين على أن ذلك نجس ولهذا صح عنه أنه كان يستنجي ويستجمر ولا يقال هذا تنقص له والجمهور يفرقون بين شعره

وبوله فشعره طاهر وبوله نجس وطائفة نجست شعره وبوله ومن الناس من قال بطهارتهما ولا يقال لمن سوى في هذا الحكم بين شعره وبوله إنه ساب له   وجمهور العلماء على جواز وقوع الصغائر من الأنبياء وإن كانوا لا يقرون عليها ولم يقل أحد إن هذا سبب لهم يوجب الكفر والقتل والأنبياء يجوز عليهم المرض والجوع والنسيان ونحو ذلك بالإجماع ولا يقال هذا تنقص لهم وكذلك يجوز عليهم عند عامة أهل السنة أن يصابوا بالسحر وأنكر ذلك طائفة من أهل الكلام وتنازع الناس هل في سنته ما يقوله باجتهاد وإذا اجتهد هل يجوز عليه الخطأ لكن لا يقر عليه   وأكثر الفقهاء يقولون بالأمرين ولم يقل أحد إن هؤلاء سابون له وإلا فيكون أكثر أصحاب مالك والشافعي وأحمد يسبون الرسول صلى الله عليه وسلم   وتنازع الناس إذا أراد أن يسلم عليه بعد وفاته هل يستقبل القبر ويستدبر القبلة أو لا يستقبل القبلة على قولين   ثم تنازعوا هل يستدبر القبر أو يجعله عن يساره على وجهين والأول هو مذهب مالك والشافعي وأحمد والثاني مذهب أبي حنيفة ولم يقل أحد إن هذا تنقص ومثل هذا كثير في الأحكام المتعلقة به صلى الله عليه وسلم مما يجب له ويباح ويحرم ويكره ويستحب   قال البكري وأورد هذا الرجل حديثا أن منافقا كان يؤذي المؤمنين قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله   قال والكلام على استدلال هذا الكافر الضال من وجوه   الأول عدم تسليم صحة الحديث له إلى آخر كلامه   قال الشيخ والجواب عن هذا الكلام مع ما فيه من الجهل والإلحاد والحلول والشرك في الدين والافتراء على الله والرسول وعباده المؤمنين أن يقال   هذا الخبر لم يذكر للاعتماد عليه بل ذكر في ضمن غيره

ليتبين أن معناه موافق للمعاني المعلومة بالكتاب والسنة كما أنه إذا ذكر حكم بدليل معلوم ذكر ما يوافقه من الآثار والمراسيل وأقوال العلماء وغير ذلك لما في ذلك من الإعتضاد والمعاونة لا لأن الواحد من ذلك يعتمد عليه في حكم شرعي ولهذا كان العلماء متفقين على جواز الإعتضاد والترجيح بما لا يصلح أن يكون هو العمدة من الأخبار التي تكلم في بعض رواتها لسوء حفظ أو نحو ذلك وبآثار الصحابة والتابعين بل بأقوال المشايخ والإسرائيليات والمنامات مما يصلح للإعتضاد فما يصلح للإعتضاد نوع وما يصلح للإعتماد نوع وهذا الخبر من النوع الأول فإنه رواه الطبراني في معجمه من حديث ابن لهيعة وقد قال أحمد قد كتبت حديث الرجل لأعتبر وأستشهد به مثل حديث ابن لهيعة فإن عبد الله بن لهيعة قاضي مصر كان من أهل العلم والدين باتفاق العلماء ولم يكن ممن يكذب باتفاقهم ولكن قيل إن كتبه احترقت فوقع في بعض حديثة غلط ولهذا فرقوا بين من حدث عنه قديما وبين من حدث عنه حديثا وأهل السنن يروون له والسياق الذي ذكر فيه هذا الحديث في جواب الفتيا لفظه فأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يجوز أن يطلب إلا من الله لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم إلى أن ذكر الحديث لأن فيه لفظ الاستغاثة التي كان فيها النزاع وهو في كتاب مشهور وقد روى الناس هذا الحديث من أكثر من خمس مئة سنة إن كان ضعيفا وإلا فهو مروي من زمان النبي صلى الله عليه وسلم وما زال العلماء يقرؤون ذلك ويسمعونه في المجالس الكبار والصغار ولم يقل أحد من المسلمين إن إطلاق القول إنه لا يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم كفر ولا حرام وكان في إيراده بيان تقدم تكلم العلماء والسلف بهذا اللفظ ولو كان عبد الله بن لهيعة ذاكرا لا آثرا ولم ينكره المسلمون عليه لكان في

ذلك مستند لهذا الإطلاق فإن الرجل قاضي مصر في ذلك الزمان وهو من أكبر العلماء المفتين ونظير لليث بن سعد والغلط الذي وقع في حديثه لا يمنعه أن يكون من أهل الاجتهاد والفتيا مثل محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى قاضي الكوفة وكان زمانهما متقاربا فإنه من أعيان الفقهاء المفتين وإن كان في حديثه ضعف وكذلك شريك بن عبد الله وأبو حنيفة ومحمد بن الحسن وغيرهم من المشهورين بالفتيا إذا تكلم في حديثهم لم يمنع هذا أن يكونوا من المجتهدين المفتين إذا كان النزاع في إطلاق لفظ وقد أطلقه أحد هؤلاء العلماء إما آثرا وإما ذاكرا وسمعه الناس منه ونقلوه عنه ولم يعرف أن أحدا أنكره علم أن علماء المسلمين كانوا يتكلمون بمثل هذا اللفظ وأن المتكلم به ليس خارقا للإجماع ولا مبتدعا لفظه لم يسبق عليه بآخر الأصل المخطوط المطبوع عليه هذا الجزء ما خلاصته بلغ معارضته على أصل مخطوط جيد في مكتبة الأفاضل بني شطي في دمشق الشام وتمت المعارضة في 25 جماد الثانية سنة 1330 وكتبه جمال الدين القاسمي عفي عنه يليه تتمته وأوله وأما ما ذكره من تأويل الحديث إلخ

بسم الله الرحمن الرحيم وأما ما ذكره من تأويل الحديث فهو من جنس دين النصاري لا من جنس دين المسلمين وبيان ذلك من وجوه الأول قوله إن الله تعالى لتشريف رسوله والمقربين عنده خاطبهم تارة بتنزيلهم منزلة نفسه في الأفعال وتارة نزل نفسه منزلتهم في الأفعال والأوصاف وكلاهما تشريف عظيم فيقال هذا كذب على الله وشرك به وهو من جنس أقوال أهل الحلول والاتحاد فليس في خطاب الله المطلق تنزيل أحد منزلة نفسه في الأفعال ولا تنزيل نفسه في الأفعال والأوصاف منزلتهم بل هو إله واحد لا شريك له وكل من في السماوات والأرض آتية عبدا لقد أحصاهم وعدهم

عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا ومن قال إن الرب عز وجل ينزل المخلوق منزلة نفسه في الأفعال أو ينزل هو منزلة المخلوق في الأفعال والأوصاف فقد زعم أن الله سبحانه يجعل له ندا وأنه يقيم المخلوق مقامه في الخلق والرزق والإحياء والإماتة وإجابة الدعاء وكونه معبودا وأنه يقوم مقام العبد في الصلاة والصيام والطواف وغير ذلك من أفعال العباد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا قال تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ومن أخص أوصاف الرب القدرة على الخلق والاختراع فليس ذلك لغيره أصلا حتى إن كثيرا من النظار المثبتين للقدر كالأشعري وغيره جعلوا هذا أخص وصف للرب تعالى كما جعل الجبائي وغيره من المعتزلة أخص وصفه القدم ومقصود المعتزلة أن لا يثبتوا له صفة قديمة لامتناع المشاركة في أخص وصفه ومقصود أولئك المثبتين أن لا يشركه غيره في الخلق وقد يقولون لا يشركه غيره في الفعل وهو قول من يقول العبد فاعل مجازا لا حقيقة وهو كاسب حقيقة كما هو قول الأشعري ومن وافقه من الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وهو في الأصل قول جهم بن صفوان وهو أول من عرف في الإسلام أنه قال إن العبد ليس بفاعل لكن جمهور أهل السنة من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم يقولون إنه فاعل حقيقة وجمهور هؤلاء يقولون إن فعله مفعول للرب بناء على أن الخلق غير المخلوق كما هو قول الأكثرين وهو مذهب السلف وأهل الحديث والفقهاء وأما من قال إن الفعل هو المفعول وإن فعل العبد فعل الرب ولم يفرق بين الفعل والمفعول فيلزمه لوازم تبطل قوله كما قد بسط في غير هذا الموضع وبين أن القدرة على الاختراع من خصائص الرب وأخص وصف الرب ليس هو صفة واحدة بل علمه بكل شيء من خصائصه وقدرته على كل شيء من خصائصه وخلقه

لكل شيء من خصائصه والمقصود هنا الكلام على قول هذا الرجل الذي ضاهى المشركين الحلولية من النصارى وغالية الشيعة وجهال الصوفية حيث قال إن الله تعالى ينزل المقربين منزلة نفسه تارة وينزل نفسه منزلتهم في الأفعال والأوصاف تارة فإن هذا كلام مخالف لدين المسلمين وسنبين جهله وخطأه فيما تأوله على ذلك من القرآن والحديث فنقول أما قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما فليس فيها أن نفس الفعل القائم بالرسول ومخاطبته لهم ومد يده لمبايعتهم هو نفس فعل الله ومخاطبته ومبايعته بل فيها أن من بايع الرسول فقد بايع الله كما قال تعالى من يطع الرسول فقد أطاع الله وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني فطاعة أميره طاعته ومعصية أميره معصيته لأنه أمر بطاعته فمن أطاعه أطاع الله لأن الله أمر بامتثال ما أمر به لأن أمره من أمر الله لا أن نفس الفعل القائم بأميره نفس فعله ولا نفس فعله هو نفس فعل الرب تعالى واعلم أن من قال من النظار إن أفعال العباد كلها فعل الله فلا فرق عندهم بين أفعال المؤمنين والكفار والبهائم وحركات الجمادات فإن مرادهم أن كل ما سوى الله فهو فعله أي مفعوله وعلى قول هؤلاء فلا فرق بين فعل الرسول وغيره وليس في كون الله خالقا لشيء تفضيل لذلك المخلوق على غيره فإن الله خالق كل شيء كذلك على قول الجهور الذين يقولون إن أفعال العباد مفعولة له مخلوقه له ليست فعله بل هي فعل الفاعلين والله تعالى خالق الفاعل وفعله فعلى القولين لا فضيلة في ذلك

لمخلوق على مخلوق فلا تظن أن في هذا تشريفا لمقرب ولا رسول ولا غيره وهذا ما يبين به خطأ هؤلاء الجهال الذين لا يفرقون بين ما خلقه وقدره وما أمر به وفرضه فجعل الله تعالى مبايعة الرسول مبايعة الله وطاعة الرسول طاعة الله ليس من جهة خلق الله أفعال العباد والقيومية الشاملة للمخلوقات فإن كونه خالقا لكل شيء وكونها بمشيئته وقدرته ليس فيها تفضيل مخلوق على مخلوق إذ التفضيل إنما يكون بما به الاختصاص لا بما يشترك الجميع فيه ومن جعل مبايعة الرسول مبايعة لله لأجل أن الله خالق كل شيء نظرا منه إلى القيومية الشاملة لكل مخلوق لزمه أن يكون من بايع الكفار والفساق مبايعا لله لأن الله خالق كل شيء فيكون هؤلاء قد جعلوا مبايعة خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه كمبايعة فرعون وأمثاله من المشركين وهذا يقع فيه كثير ممن يلحظ القيومية الشاملة العامة المتناولة لكل مخلوق وهؤلاء من أكفر الخلق ويجعلون هذا منافيا للأمر والنهي وهم من جنس الذين قالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا إلى قوله قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إ ن تتبعون إلا الظن وكذلك هؤلاء إنما يتبعون أهواءهم ولا يتكلمون بعلم فإن قولهم في غاية المناقضة فإن الواحد من هؤلاء إذا آذاه غيره أو ظلمه قابله وعاقبة ولا يمكنه أن يعذره بالقدر ومشاهدة القيومية كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع وجهة تفضيل الرسول صلى الله عليه وسلم من جهة كون الله تعالى أرسله مبلغا لأمره ونهيه مبينا لما يحبه ويرضاه وما يبغضه ويسخطه فما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم فالله أمر به وما نهى عنه فالله نهى عنه ومن بايعه وعاهده وعاقده على أن يطيعه في الجهاد إذا أمره به وأن لا يفر أو على أن يقابل حتى يموت كما بايعه المسلمون تحت الشجرة فهم معاهدون الله

تعالى معاقدون له على طاعته فيا أطاعوا فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وكذلك الذين بايعوه قبل ذلك ليلة العقبة لما بايعه الأنصار ولهذا قال تعالى واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا فسمعهم وطاعتهم لا أمرهم ومعاهدتهم على ذلك هو سمع وطاعة لله تعالى و معاهدة له و عهد الله إلى خلقه وهو أمره و نهيه الذي بلغته رسله و التخصيص و التفضيل يظهر في الوفاء به و متابعة الرسل ولهذا قال تعالى و أوفوا بعهدي أوف بعهدكم أي أوفوا بأمري أوف بوعدكم الذي وعدتكم على الوفاء به فإن المبايعة و المعاهدة تتضمن المعاوضة من الجانبين فهم إذا أوفوا بما عاهدوا الله عليه من الطاعة وفي الله تعالى بما عاهد عليه من الأجر و الثواب كما قالت الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم اشترط لربك و لنفسك و لأصحابك فقال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا و لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أبناءكم و نساءكم و لأصحابي أن تواسوهم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال لكم الجنة قالوا امدد يدك فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك فهم لما عاهدوه على هذا ليطيعوه فيه قد عاهدوا ربه عز وجل الذي أمرهم بذلك و الله تعالى هو الذي يوفي بعهدهم فيدخلهم الجنة وفي الحديث الصحيح عن شداد بن أوس عن النبي أنه قال سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني و أنا عبدك و أنا على عهدك و وعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على و أبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها حين يصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة و من قالها حين يمسي موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فقوله و أنا على عهدك ووعدك ما استطعت أي على ما عهدته إلينا من طاعتك ووعدك ما وعدتنا به من ثوابك

أمتثل أمرك و أرجو وعدك   و من المعلوم أن الإنسان لو استناب نائبا ووكل وكيلا في عقود كبيع و إجارة و مزارعة ونحو ذلك لكان المعاقد للوكيل معاقدا لموكله بحيث إن وفى الموكل فقد وفى للوكيل و إن غدر بالوكيل فقد غدر بالموكل و الموكل عليه أن يوفي بما عاقد عليه الوكيل و الوكيل إذا استمر موكله في العقد تعلقت حقوق العقد بالموكل وهل يكون الوكيل ضامنا على قولين معروفين هما روايتان عن أحمد   و من قال إن حقوق العقد تتعلق بالوكيل كما يحكى عن أبي حنيفة يقول إنها بعد ذلك تنتقل إلى الموكل   و لهذا تنازعوا في المسلم إذا وكل ذميا في شراء الخمر فقال الجمهور لا يصح لأن الملك يحصل للموكل و المسلم ليس له أن يملك الخمر و أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول ملكها الذمي ابتداء ثم دخلت في ملك المسلم ضرورة كالميراث   وعلى كل تقدير فمآل الأمر إلى الموكل ومع هذا ففعل الوكيل متميز عن فعل موكله و كلامه متميز عن كلامه ليس أحدهما هو الآخر ففعل المخلوق أشد مباينة لفعل الخالق من مباينة فعل مخلوق لمخلوق   و إذا كان مبايعة الوكيل مبايعة للموكل مع تمييز الفعلين فالتمايز في الخالق أولى ولو أرسل مرسل رسولا إلى شخص ليعاقده عقدا من العقود هدنة أو نكاحا أو غير ذلك لكانت معاهدة الرسول معاهدة لمرسله مع تمييز أحد الفعلين عن الآخر   و مع كون المرسل و الرسول من جنس واحد و مع أنه يمكن أن يقيم الموكل وكيله مقامه في عامة أفعاله لأن الوكيل يفعل مثل ما يفعله موكله و أما الرب سبحانه و تعالى فيمتنع أن يفعل أحد مثل فعله و يمتنع أن يستخلف أحدا يقوم مقامه في فعله فإنه سبحانه و تعالى خالق فعل ذلك الشخص وهو سبحانه و تعالى شاهد لا يغيب و هذا موضع غلط فيه طائفة من الناس فظنوا أن الله سبحانه و تعالى

يستخلف أحدا عن نفسه و ادعى بعضهم أن آدم خليفة عن الله في الأرض يقوم مقامه و أنه جمع له أسماءه الحسنى قالوا وهو معنى تعليمه الأسماء كلها   وهذا قول أهل الحلول و الاتحاد كابن عربي صاحب الفصوص و أمثاله من أهل الإلحاد و هذا جهل و كفر فإن الله تعالى هو الذي يخلق كل شيء و يدبر أمر السماء و الأرض وهو خالق آدم كما هو خالق سائر المخلوقات وهو شاهد لا يغيب   و المخلوق يستخلف مخلوقا عن نفسه لعجزه أو جهله أو مغيبه و أفعال الخليفة عن غيره يفعلها بنفسه لا يحدثها الذي استخلفه و الله تعالى على كل شيء قدير وهو بكل شيء عليم وهو شاهد لا يغيب وهو الذي يخلق كل شيء فالعبد يستخلف ربه كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا سافر اللهم أنت الصاحب في السفر و الخليفة في الأهل اللهم اصحبنا في سفرنا و اخلفنا في أهلنا فإن المقيم عند أهله هو يدبر أمر بيته فإذا سافر سأل الله أن يخلفه فيهم و كما روي أنه سمع يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم قائلا يقول إن في الله عزاء من كل هالك و عوضا من كل مصيبة و خلفا من كل ما فات فبالله فثقوا و إياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب   و كذلك العبد يخلف العبد في أهله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من جهز غازيا فقد غزا ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا وقال صلى الله عليه وسلم في قصة ماعز و كلما نفرنا في الغزو خلف أحدهم له نبيب كنبيب التيس يمنح أحداهن الكثبة من اللبن إن الله أمكنني من أحد منهم لأجعلنه نكالا   و منه قوله تعالى وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض أي يخلف بعضهم بعضا   و كما قال تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم   و قوله تعالى ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون   و

داود عليه السلام جعله الله خليفة عن من كان قبله كما جاءت بذلك الآثار و منه قوله تعالى ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون وقد قيل إن من هنا للبدل أي بدلا منكم كما قالوا في قوله تعالى قل من يكلؤكم بالليل و النهار من الرحمن أي بدلا من الرحمن و أنشدوا فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيات و قالوا معناه بدلا من ماء زمزم وفي حديث أبي سعيد الذي رواه مسلم في صحيحه إن الدنيا حلوة خضرة و إن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء و المقصود هنا أن المخلوق يمكن أن يقيم مقامه من يفعل مثل فعله و أما الرب فهذا ممتنع في حقه ممتنع لذاته أن يكون غير الله مماثلا له في ذاته أو صفاته أو أفعاله فإن المثلين يجوز على أحدهما ما جاز على الآخر و يجب له ما يجب له و يمتنع عليه ما يمتنع عليه و الرب حي قيوم غني صمد واجب بنفسه مستحق لصفات الكمال بنفسه ممتنع اتصافه بنقائضها فإن كماله من لوازم ذاته الواجبة الوجود بنفسها التي يمتنع عدمها أو عدم شيء من لوازمها و المخلوق يجب أن يكون معدوما محدثا فقيرا فلو تماثلا للزم أن يكون كل منهما واجب الوجود واجب العدم قديما محدثا غنيا بنفسه فقيرا بنفسه و ذلك جمع بين النقيضين و إذا كان المخلوق الذي يرسل من يماثله لا يكون فعله هو فعله فالخالق الذي يرسل بعض عباده أبعد أن يكون فعله هو فعله حتى تكون نفس بيعة الرسول نفس بيعة المرسل فإذا كان خالقا لذلك الفعل و غيره من المخلوقات فهو بهذا الاعتبار الاختصاص له و الله تعالى قال إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله فإن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله وبيعته عن مرسله ليست بيعة لنفسه و الجزاء على مرسله و لهذا قال ومن

أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما   و أما استشهاده بقوله تعالى و ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فمن هذا الجنس وهو قد سبقه إلى هذا المعنى الذي توهمه طائفة من الجهال و ذلك أن الله تعالى لم يضف الرمي هنا إلى نفسه لمجرد كونه خالقا لأفعال العباد فإن هذا قدر مشترك بين رمي النبي صلى الله عليه وسلم و سائر أفعاله غير الرمي و بين رمي غيره من الناس و بين أفعالهم فإن فعال العسكرين يوم بدر خلقها الله تعالى كما خلق سائر أفعال الحيوان لو جاز أن يقال إن الله رمى لكونه خلق حركة العبد لقيل إنه يكر و يفر و يركب و يعدو و يصوم و يطوف و نحو ذلك لكونه يخلق ذلك   و قد روي أن المحاصرين لعثمان رضي الله تعالى عنه كانوا يرمونه بالحجارة فقال لم ترموني فقالوا لم نرمك و لكن الله رماك قال كذبتم لو رماني الله لأصابني و أنتم ترمونني ولا تصيبونني وهو صادق في ذلك فإن الله تعالى لما رمى قوم لوط و أصحاب الفيل أصابهم و لكنهم هم رموا عثمان   و الله تعالى يقول وما رميت إذ رميت و لكن الله رمى لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من تراب أو غيره فرمى بها المشركين فأصابت عيونهم و هزمهم الله تعالى بها ولم يكن في قدرة النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بل الله تعالى أوصل ذلك إليهم   و الرمي له طرفان خذف بالمرمي ووصول إلى العدو و نكاية فيهم و النبي صلى الله عليه وسلم فعل الأول و الله فعل الثاني   و المعنى ما أوصلت الرمي إذ خذفته و لكن الله أوصله و هزمهم به فالذي أثبته الله لنبيه غير الذي نفاه عنه وقد أثبت له رميا بقوله إذ رميت و نفى عنه رميا بقوله وما رميت وكان هذا غير هذا لئلا يتناقض الكلام   ولو كان المراد كما ظنه هذا و أمثاله ممن يحتج بهذه الآية على أن الله خالق أفعال العباد و يضحك المعتزلة و غيرهم

من القدرية عليه إذا احتج بهذه الآية ولو كان المراد لساغ أن يقال مثل هذا في جميع أفعال العباد فيقال ما ركبت إذ ركبت و لكن الله ركب و ما ظننت إذ ظننت و لكن الله ظن و ما أكلت إذ أكلت و لكن الله أكل لكان يقال لكل من رمى بالقوس وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى و يقال للكفار إذا رموا المسلمين ما رميتم إذ رميتم و لكن الله رمى و أشباه هذا مما لا يقوله مسلم ولا عاقل   ثم إن الله تعالى ذكر هذه الآية لبيان نعمته على نبيه و على المؤمنين يوم بدر وما أيدهم به من النصر فلو أريد كونه خالقا لفعله لكان هذا قدرا مشتركا بين جميع الناس بل لا بد أن يكون لرميه خاصة يعجز عنها الخلق فعلها الله تأييدا لنبيه و نصرا له و إنعاما عليه و على المؤمنين فتبين أن هذه الآية حجة عليه لا له كالأولى و أن الله تعالى فرق بين فعل الخلق و فعل نفسه ولم ينزل أحدا منزلة نفسه في الأفعال   و مما يبين ذلك أن أفعال العباد لا يجوز أن تنفى عنهم باتفاق المسلمين من قال إن الله تعالى خالقها ومن قال إنه لم يخلقها لا يجوز أن يقال هذا ما أكل ولا شرب ولا قعد ولا ركب ولا طاف ولا ركع ولا سجد ولا صام و لا سعى ولكن الله هو الذي أكل و شرب و قعد وركب و طاف و ركع و سجد و صام و سعى   و سواء كانت الأفعال محمودة أو مذمومة و سواء كانت سببا لخرق العادة أم لا فلا يقال إن موسى ما ضرب بعصاه البحر ولا الحجر ولكن الله ضرب ولا يقال إن نوحا ما ركب في السفينة و لكن الله ركب ولا يقال إن المسيح ما ارتفع إلى السماء بل الله ارتفع ولا يقال إن محمدا صلى الله عليه وسلم ما ركب البراق بل الله ركب و أمثال هذا   فالفعل المختص بالمخلوق لا يضاف إلى الله تعالى إلا على بيان أن الله تعالى خلقه و جعل صاحبه فاعلا كقول الخليل عليه السلام رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي   و كما قال ربنا و

اجعلنا مسلمين لك و من ذريتنا أمة مسلمة لك   و قال تعالى و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا و كانوا بآياتنا يوقنون   و قال و جعلناهم أئمة يدعون إلى النار   و لا يقال إن الله يقيم الصلاة و يدعو إلى النار ولا إنه قد أسلم   و قال تعالى إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا و إذا مسه الخير منوعا ولا يوصف الله تعالى بالهلع و الجزع   و جماع الأمر أن الله عز وجل لا يوصف بمخلوقاته وهذه هي أدلة السلف و أهل السنة على أن كلام الله تعالى غير مخلوق قالوا   لأنه سبحانه لا يوصف بما خلقه في غيره فإذا خلق في غيره حركة أو طعما أو ريحا أو لونا كالسواد و البياض لم يوصف بأنه هو المتحرك بها ولا بأنه متروح أو أبيض أو أسود و إذا خلق في غيره كلاما لم يوصف بأنه هو المتكلم به   و يعبرون عن ذلك بأن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ولم يعد على غيره و اشتق لذلك المحل منه اسم ولم يشتق لغيره فإذا خلق في محل حركة أو علما أو قدرة كان ذلك المحل هو المتحرك العالم القادر لا الخالق لتلك الصفة فيه   و أورد المعتزلة نقضا على هذا صفات الأفعال فقالوا هو عادل بعدل خلقه في غيره فأجاب أئمة السلف رحمهم الله و جمهورهم بطرد الدليل بناء على أن الفعل غير المفعول و استدل الإمام أحمد و غيره بقول النبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بكلمات الله التامات قالوا وهو لا يستعيذ بمخلوق و طرد هذا قوله اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك و بمعافاتك من عقوبتك وبك منك فالنبي صلى الله عليه وسلم استعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه و بكلماته و هذا مذهب جمهور المسلمين أن الخلق غير المخلوق وهو المنقول عن السلف والأئمة كما ذكره البخاري في كتاب خلق الأفعال وهو الذي ذكره البغوي صاحب شرح السنة وهو الذي ذكره الكلاباذي أنه اعتقاد الصوفية

وهو قول الكرامية وكثير من المعتزلة وأصحاب أبي حنيفة وجهور أصحاب مالك والشافعي وأحمد لا من وافق منهم الأشعري وغيره الذين يقولون الخلق هو المخلوق كما اختار ابن عقيل وغيره وهو أول قول القاضي أبي يعلى ثم رجع عنه وهو اختيار أبي المعالي الجويني وغيره وهذا مبسوط في غير هذا الموضع   والمقصود هنا أن السلف والأئمة متفقون على أن الله سبحانه وتعالى لا يوصف بالمخلوقات فلا يوصف بما خلقه في غيره من الصفات وإن كانت صفات كمال فكيف يوصف بما خلقه في غيره من أفعال العباد وتجعل الأفعال القائمة بالمخلوقات صفات له يشتق له منه أسماء فهذا مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول مناقض للقواعد والأصول ولكن بعض من ناظر القدرية في هذا المقام انحرف كما انحرف وقابل باطلا بباطل ورد بدعة ببدعة   والذين يصفون الله تعالى ببعض المخلوقات صنفان صنف غلطوا في الصفات وصنف غلطوا في القدر   فالأول الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون إن كلام الله مخلوق فوصفوه بما خلقه في غيره   وكذلك يقولون رضاه وغضبه هو ما يخلقه من الثواب والعقاب وإرادته خلقها لا في محل كما تقوله المعتزلة من البصريين فيصفونه بمخلوقات بائنة عنه   والصنف الثاني الجهمية الجبرية الذين قالوا إن أفعال العباد نفس فعله وفعله هو مفعوله كما يقوله الجهم بن صفوان وأتباعه كالأشعري ومن وافقه وهؤلاء لم يثبتوا له فعلا قائما بنفسه غير المخلوقات المباينة له فإذا كان خالق أفعال العباد لزم أ ن تكون هي فعله ولا تكون فعلا لغيره وحينئذ فالصفات الفعلية التي يصفون بها الرب مثل كونه خالقا ورازقا وعادلا إنما تتصف عندهم فيها بمخلوقاته وتتصف أيضا عندهم بأفعال العباد كلها   فالجهم بن صفوان أعظم الناس وصفا له بمخلوقاته في كلامه وأفعال

العباد وغير ذلك والمعتزلة وافقوه في الكلام ونحوه من الصفات دون أفعال العباد ووافقوه في فعله لغير أفعال العباد لكون أفعال العباد عندهم ليست فعلا له فالجهية والمعتزلة متفقون على أنه يوصف بمخلوقاته لكن المعتزلة عندهم هو خلق كلامه ورضاه وغضبه وإرادته فيوصف بها ولم يخلق أفعال العباد فلا يوصف بها وأما جهم فعنده أنه خلق الجميع فلزمه أن يوصف بالجميع والأشعري وافق جهما في المخلوقات من أفعال العباد وغيرها دون الكلام والإرادة فإنهما عنده صفات تقوم بالله لكنه وافقه على أن المخلوق هو الخلق وهو يصفه بالصفات الفعلية فوافقه على اتصافه بالمخلوق من هذا الوجه و صار هو والمعتزلة متقابلين هو ينكر عليهم قولهم في الكلام والإرادة وأصاب في إنكاره عليهم وهم ينكرون عليه قوله في أن أفعال العباد فعله وهم وإن أصابوا في هذا الإنكار لكنهم ينكرون أن يكون مخلوقا وهذا منكر والأشعري يثبت للعبد قدرة محدثة وكسبا ولكن يقول قدرته لا تأثير لها في المقدور وما أثبته من الكسب لا يتحقق الفرق بينه وبين الفعل فكان حقيقة قوله في أفعال العباد هو معنى قول جهم وأما السلف وأئمة الفقهاء وأهل الحديث وجمهور المنتسبين إلى السنة وطوائف من أهل الكلام من المرجئة والكرامية وغيرهم فسلموا من هذه الأقوال الفاسدة ولم يصفوا الله بمخلوقاته وإنما وصفوه بما يقوم به من صفاته وأفعاله وأما الحلولية الذين يصفونه ببعض أفعال المخلوقات كما تقوله النصارى في المسيح والغالية في الأئمة والشيوخ والقائلون بالحلول العام كقول ابن عربي وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه فهؤلاء فساد قولهم أظهر من هذا كله وقوله هذا المتخلف يرجع إلى قول هؤلاء وإن كان قد لا يلتزمه لو عرف أنه يلزمه وأما الخبر الذي استشهد به

من قوله استطعمتك فلفظه في الصحيح يقول الله تعالى عبدي جعت فلم تطعمني فيقول رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي عبدي مرضت فلم تعدني فيقول رب كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلو عدته لوجدتني عنده وهذا الخبر ليس فيه فعل للعبد وإنما فيه جوعه ومرضه ولكن ظن أن لفظة استطعمتك وأنه جعل استطعام العبد استطعام الرب وأيضا فالخبر مقيد لم يطلق الخطاب إطلاقا وإنما بين أن عبده هو الذي مرض وهو الذي جاع وقال لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ولم يقل لوجدتني أكلته وقال لو عدته لوجدتني عنده ولم يقل لوجدتني إياه 2 والحديث خطاب مفسر مبين أن الرب عز وجل ليس هو العبد ولا صفته صفته ولا فعله فعله أكثر ما فيه استعمال لفظ الجوع والمرض مقيدا مبينا للمراد فلم يطلق الخطاب إطلاقا وأيضا فقد علم المخاطب أن الرب تعالى لا يجوع ولا يمرض فلم يكن فيه تلبيس لا من جهة السمع ولا من جهة العقل بل المتكلم بين فيه مراده والمستمع له لم يشتبه عليه بخلاف ما إذا أضيف لفعل العبد الذي يمكن منه الفعل والفعل قد قام به فإنه إذا جعل فعله فعل الرب لم يعقل هذا إلا إذا أريد أنه خالقه وإذا أريد ذلك فالصواب أن يقال فعل العبد مخلوق للرب تعالى ومفعول له لا يطلق أنه فعله لما فيه من التلبيس ولما فيه من نفي فعل الرب ولما فيه من نفي كون العبد فاعلا ثم إنه لا فرق في ذلك بين المقربين وغير المقربين بهذا الاعتبار بل قال الله تعالى إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا كما قال تعالى إنا أرسلنا نوحا إلى قومه ونوح عليه السلام محمود مقرب والشياطين أعداء الله وقال تعالى بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد كما قال تعالى بعث

في الأميين رسولا منهم   وقال ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله وكما أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فيخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن وقد خلق المؤمن والكافر والبر والفاجر وخلق الدواب والنبات كلها طيبها وخبيثها فجهة الخلق عامة شاملة فلو كان قوله يبايعونك وقوله ولكن الله رمى من الخلق الشامل والقيومية العامة للزم أن يقال مثل ذلك في كل مبايع ورام وإن كان من الكافرين ولم يكن في ذلك خاصة لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا فضل له على أحد المخلوقين   وأما حديث الأولياء فليس من هذا الباب بالكلية وإنما فيه فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي لم يقل أنا أسمع وأنا أبصر ولا أنا أبطش ولا أنا أمشي   وقد صرح بالفرق فيه بين الرب والعبد من وجوه متعددة كقوله من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ففرق بين نفسه ووليه وعدوه ووليه ثم قال ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ففرق بين المتقرب والمتقرب إليه ثم قال فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به إلى آخره فلم يقل كنت إياه ولا فيه أن فعل أحدهما هو فعل الآخر ولكن أخبر أن إحسان العبد وفعله يقع به لأن العبد إذا صار موافقا لله فيما يحبه ويرضاه يحب ما يحب ويبغض ما يبغض ويرضى بما يرضى ويأمر ما يأمر وينهى عما ينهى صار الإيمان به ومعرفته وتوحيده في قلبه فإحساسه وأفعاله تقع به   وهذا ما في القلب نظير قوله في ما في اللسان أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه فقال تحركت بي وإنما تتحرك باسمه كذلك قوله فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي أي بما في قلبه من الإيمان بي وقد يسمى هذا المثال العلمي وهذا كثير في الكلام كقول القائل ساكن في القلب يعمره لست أنساه فأذكره وقال الآخر ومن عجبي

أني أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي وقد يسمى هذا حلولا لحلول معرفته ومحبته في العارف المحب وقد غلط بعض الناس فظن أن ذات المعلوم المحبوب محل وهذا غلط كما غلط من قال بحلول ذات الرب سبحانه وتعالى في بعض عبيده كالنصارى ومن ضاهاهم من غلاة الشيعة وجهال الصوفية الوجه الثاني قوله فإذا غلب على المقرب شهود القيومية ورؤية التوحيد كما جاء في مقام الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه نطق برد الأشياء إلى خالقها وغلب ذلك على نطقه فيقال مشهد القيومية يشهد فيه أن الله خالق كل شيء وهذا الشهود العام يتناول ما دخل من إيمان و كفر و أما الإحسان الذي فيه أن تعبد الله كأنك تراه فهذا مقام من يميز بين المحظور و المأمور فإن العبد إذا صار كأنه يشاهد ربه فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ووالى أولياءه وعادى أعداءه و هذا مشهد الإلهية الذي دعت إليه الرسل حيث أمروا بعبادة الله وحده و طاعته و ليس هذا هو مشهد القيومية و لكن من هو أكبر من هذا الرجل غلطوا في هذا فغلط مثل هذا لا ينكر لا سيما كثير من الشيوخ المعظمين عند هذا و أمثاله فإنهم لا يفرقون بين هذا و هذا بل يعدون نهاية العارفين الفناء في توحيد الربوبية والاصطلام في شهود القدر الجاري و يقول أحدهم إن مشاهدة العارف المنتهي في القربة لحكم الله الذي هو مشهد مشيئته العامة لم يدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة وقد يقول أحدهم هذا العارف يكون الجمع في قلبه مشهودا و الفرق على لسانه موجودا و مرادهم بالجمع شهود القدر و هؤلاء غاية تحقيقهم شهود التوحيد الذي أقر به عباد الأصنام فإن عباد الأصنام من العرب كانوا يقرون بأن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه كما أخبر الله

عنهم في القرآن في غير موضع كقوله قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السماوات السبع و رب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون و قال تعالى و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولن الله وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم احتجوا في ذلك بقوله تعالى سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا الآية وقد ظن طائفة من المثبتين للقدر أنهم قالوا هذا على سبيل التكذيب بالقدر و الاستهزاء به لقوله كذلك كذب الذين من قبلهم و بهذا أجاب القدرية لما احتججت عليهم بهذا الآية وهذا غلط فإن العرب كلهم كانوا يثبتون القدر و يقرون أن الله خالق كل شيء وربه و مليكه فلم يكونوا مكذبين بذلك ولا ذمهم الله سبحانه على التكذيب بالقدر بل على الاحتجاج به على إبطال الأمر و النهي و قوله كذلك كذب الذين من قبلهم أي كذبوا بالأمر و النهي الذي جاءت به الرسل فإن هذا هو تكذيب الذين من قبلهم الذي ذكر الله في القرآن و لهذا قال قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أي فإن المحتج بالقدر لا يحتج به إلا إذا لم يكن عنده علم بل يتبع هواه فإنها حجة متناقضة إذ لو احتج عليه بالقدر لما قبل هو ذلك منه و هذا مبسوط في غير هذا الموضع فمن كان غاية توحيده شهود القيومية و الربوبية العامة كان قد شهد ما أقر به المشركون ولم يكن قد شهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله و إنما يشهد ذلك من شهد الفرق بين المأمور و المحظور و بين أولياء الله و أعدائه و بين توحيده و الإشراك به و عبد الله كأنه يراه و هذا شهد الفرق في الجمع فهو مع شهوده القيومية يشهد أنه الإله المستحق للعبادة دون ما سواه ووجوب طاعة رسوله صلى

الله عليه وسلم و موالاة أوليائه و معاداة أعدائه و يستعينه على فعل ما أمر و ترك ما حظر و شهوده أنه خلق الملائكة و الشياطين لا يحجبه عن أن يشهد أن الملائكة و الأولياء و الشياطين أعداد و كذلك شهوده أنه خالق أفعال العباد لا يحجبه عن أن يشهد أنه يحب الإيمان و العمل الصالح و يرضاه و يكرم أهله و يقربهم إليه و ينهى عن الكفر و الفسوق و العصيان و يمقت أهله و يعاقبهم فمن غلط هذا ظن أن مجرد شهود القيومية هو شهود المقربين و ظن أن هذا هو عبادة الرب كأنه يراه و من هؤلاء من يظن أن من شهد القيومية سقط عنه الملام و منهم من يقول إن الخضر سقط عنه الملام لشهوده القيومية و هذا كله باطل و طرد هذا القول يجر إلى شر من أقوال اليهود و النصارى فإن اليهود و النصارى يميزون في الجملة بين أمور منكرة كما يميزون بين الصدق و العدل و بين الكذب و الظلم و هؤلاء إذا شهدوا القيومية العامة لم يميزوا بين المعروف و المنكر و لا بين الصدق و الكذب و العدل و الظلم فهم في هذا النفي لا يثبتون بل يميزون تمييزا طبيعيا لا شرعيا فيفرق أحدهم بين ما هواه و بين ما لا يهواه فيطلب هذا و ينفر عن هذا و يمدح من وافق غرضه و يذم من خالف غرضه و لهذا كان هؤلاء نهاية سلوكهم هو الفناء و الجمع و الاصطلام لا يحبون ما أحب الله ولا يبغضون ما أبغض الله فإن الإرادة و المحبة و الرضى سواء عندهم كما تقوله القدرية من المعتزلة و غيرهم لكن أولئك قالوا لا يحب الكفر و الفسوق والعصيان فلا يريده فيكون ما يقع من ذلك بدون مشيئته و قدرته فيكون ما لا يشاء و يشاء ما لا يكون وقال هؤلاء هو أراد الكفر و الفسوق و العصيان فهو يحب ذلك و يرضاه و إن كان لا يريده دينا بل يريد تنعيم من أطاعه و تعذيب من عصاه ثم قال هؤلاء هذا الفرق يعود إلى حظوظ

أنفسهم فالعارف الفاني عن حظوظه في شهود قيوميته لا يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة ثم قالوا و الأنبياء و الصديقون يقومون بالفرق لأجل العامة رحمة بهم و هذا عندهم من التلبيس الذي أمرت به الخاصة وهم يبطنون خلاف ما يظهرون فإنه يكون الجمع في قلوبهم مشهودا و الفرق في ألسنتهم موجودا فالقائم بالفرق عندهم لا يكون إلا واقفا مع حظه ملبسا بإيمانه لأجل غيره إذا لا فرق بالنسبة إلى الله تعالى عندهم و من عرف ما جاءت به الرسل من إثبات محبة الله تعالى و رضاه و فرحه بتوبة التائبين و سخطه و غضبه و مقته لمن عصاه و عرف أن الفرق ثابت بالنسبة إلى مع شمول المشيئة لكل واقع صار على ملة إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا فأحب الله و أحب ما يحبه الله كان متابعا لما أمر الله تعالى به و أحبه و رضيه ولم يكن مع مجرد الإرادة فإن هؤلاء دخلوا بإرادة أنفسهم فانتهوا إلى الإرادة الخلقية و من دخل بالإرادة التي هي أمر الله و نهيه مصدقا لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من الفرق الثابت في كتاب الله و أفعاله كان على دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله و أنزل كتبه على ملة إبراهيم عليه السلام و دين محمد صلى الله عليه وسلم و من لم يقل بالفرق في نفس الأمر فإنه خارج عن حقيقة الإيمان كما أنه خارج عن شريعة الإسلام فليس معه حقيقة إيمانية ولا شريعة إسلامية و إنما معه حقيقة خلقية قدرية أقر بها عباد الأصنام الذين هم مشركون و ذلك أن شهود القيومية بلا جمع ممتنع طبعا و شرعا فمن لم يشهد الفرق الشرعي الإلهي و إلا كان مع الفرق الطبيعي النفساني أو مع فرق آخر شيطاني فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين و إنهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا

جاءنا قال يا ليت بيني و بينك بعد المشرقين فبئس القرين و ذكر الرحمن يراد به الذكر الذي أنزله الله تعالى كما قال تعالى فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى فمن أعرض عن هدى الله الذي أرسل به رسله و أنزل به كتبه فلم يفرق بين ما أمر الله به وما نهى عنه كان معرضا عن ذكره المنزل فيقيض له شيطانا يصده عن سبيل الله فيفرق بمجرد هواه و من أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ولو كان مثل هذا ذاكرا لله ولم يشهد إلا القيومية العامة لم يشهد ما جاء به الكتاب المنزل من الفرق فإنه يكون من أعظم أتباع الشياطين و لهذا يوجد الشيوخ و العباد و الزهاد من هؤلاء يتبعون شياطين الإنس و الجن فيكون أحدهم من خفراء الكفار و أعوانهم و منهم من يحسن الظن بالكفار و أعوانهم و نظرائهم فيحسبهم من أولياء الله المتقين لا سيما إن رأى من الأحوال الشيطانية ما يقويه مثل أن يخبره ببعض الغائبات أو يحصل له نوع من التصرفات فيطير به الشيطان في الهواء و يحضر له طعاما وغير ذلك كما كان يحصل لعباد الأصنام مع الشياطين وهذا التوحيد توحيد الربوبية العامة كان المشركون يقرون به فهو وحده لا ينجي من النار ولا يدخل الجنة بل التوحيد المنجي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بحيث يقر بأن الله سبحانه هو المستحق للعبادة دون ما سواه وأن محمدا رسوله فمن يطع الرسول فقد أطاع الله ومن عصى الرسول فقد عصى الله فيحل ما حلله الله ورسوله ويحرم ما حرمه الله ورسوله ويأمر بما أمر الله به ورسوله وينهى عما نهى الله عنه ورسوله وهذا المقام غلط فيه كثير من

السالكين لم يميزوا بين الأول و الثاني من توحيد الربوبية و توحيد الإلهية ولو طردوا قولهم لخرجوا عن الدين كما تخرج الشعرة من العجين و إنما طرده حذاق الملحدين منهم الذين يقولون السالك يشهد أولا طاعة و معصية ثم ثانيا يشهد طاعة بلا معصية وهو شهود القيومية ثم لا تبقى طاعة ولا معصية وهو مشهد الوحدة عندهم و لهذا يقول بعض شيوخ هؤلاء أنا كافر برب يعصى ويقول لو قتلت سبعين نبيا ما كنت مخطئا ويقول الآخر وهو ابن عربي الرب حق و العبد حق يا ليت شعري من المكلف إن قلت عبد فذاك ميت أو قلت رب أنى يكلف و الكلام مبسوط في غير هذا الموضع و إنما الغرض التنبيه على موضع الغلط و الاشتباه الوجه الثالث قوله إن المقرب إذا غلب عليه هذا نطق برد الأشياء إلى خالقها و غلب ذلك على نطقه فيقال سيد المقربين محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي قاتل الكفار وكان يأمر بقطع يد السارق و رجم الزاني و جلد الشارب و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و يحل الطيبات و يحرم الخبائث فلو غلب عليه مشهد القيومية و أن الأشياء جميعها مخلوقة لله ولم يشهد ما فيها من الفرق لما كان ينبغي أن يأمر أحدا ولا ينهى أحد اولا يقتل أحدا و لكان ينبغي أن يرد كفر الكافرين و فسق الفاسقين إلى الخالق كما قال في قوله صلى الله عليه وسلم ولكن الله حملكم و بين أن يقال و العياذ بالله تعالى و لكن الله كفر وزنى و سرق و شرب الخمر فهل يقول هذا مؤمن أو عاقل وقوله صلى الله عليه وسلم ولكن الله حملكم سنذكره إن شاء الله تعالى و إلا فمشهد القيومية شامل لجميع الفعل و إن فرق بين خلق الله لحملهم و لكلامهم و لفعلهم و لتكذيب المكذبين أفترى الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يشهد القيومية في بعض الأشياء و هو أعلم الخلق بالله و مشركو

العرب كانوا مقرين بأن الله رب كل شيء وهم يقرون بمشهد القيومية الوجه الرابع أن يقال له من من المقربين كان يقف عند مشهد القيومية فيرد جميع الأفعال إلى الخالق من غير أن يشهد أنها أفعال لفاعليها يستحقون عليها المدح والذم و الثواب و العقاب   و هذا القرآن ينطق عن جميع الأنبياء و المرسلين وهم سادات المقربين بأنهم كانوا يفرقون بين المعروف و المنكر و الإيمان و الكفر و التوحيد و الشرك و يأمرون بعبادة الله وحده و ينهون عن عبادة ما سواه ولو لم يشهدوا إلا القيومية التي ترد فيها الأفعال إلى خالقها لم يأمروا ولم ينهوا ولم يمدحوا يذموا فإن العبد لا يأمر الله ولا ينهاه ولا يذمه ولا يعاقبه و الأنبياء كلهم على شهود الفرق و مدح المحسن و ذم المسيء و إن كانوا مقرين بأن الله خالق كل شيء و ربه و مليكه فشهود القيومية العامة لا يناقض أن يفعلوا ما أمروا به و أن يأمروا الخلق بعبادة الله وحده و ينهوهم عن عبادة ما سواه بل عامة بني آدم من المسلمين و الكفار يقرون بالقدر و بهذه القيومية وهم مع هذا يثبتون الفرق بين المطلوب و المرغوب و يمدحون من فعل ما يوافق مرادهم و يذمون من خالف ذلك ولا يرون الإقرار بالقيومية مناقضا لذلك الوجه الخامس قوله فيكون المعنى حينئذ كما وردت به الآية أن البيعة و إن كانت له في الصورة فهي مع ربه في المعنى و كذا ما كان من الرمي فكأنه يقول الاستغاثة وإن وقعت بي فإني لست المستغاث به في المعنى إنما المستغاث به الله عز وجل   فيقال قد تقدم بيان فساد أصل هذا الكلام   ثم نقول قوله هي مع ربه في المعنى أتريد به أن الله سبحانه و تعالى هو المرسل له الذي أمره أن يبايعهم على الجهاد و أمرهم بالجهاد وهو الذي ثبتهم على الوفاء أم تريد أن الله هو الذي خلق البيعة فإنه خالق كل شيء و

القيومية شاملة كل شيء أم تريد به معنى ثالثا فإن أردت الأول فهو صحيح ولكن يناقض قولك فإن هذا مختص بمن يأمر بما أمر الله به و ينهى عما نهى الله عنه لم ينزل الله أحدا منزلة نفسه في الأفعال ولا جعل الله أفعال محمد صلى الله عليه وسلم كصومه و صلاته و حجه و اعتماره و جهاده و نكاحه و أكله و شربه و دعائه و تضرعه فعلا له ولا جعل نفس مبايعته للمؤمنين فعلا له بل جعل المبايع له إنما يبايع مرسله و الجزاء عيله كما جعل من أطاعه فقد أطاع الله فهذا خاص ليس عاما في كل أفعاله و أيضا فلم يجعل هذا الفعل فعل الله بل أخبر أن محمدا رسول الله يبايع عنه و المبايعة لمرسله في الأصل كما أن الطاعة طاعة لمرسله في الأصل و كما أن معاملة الوكيل معاملة مع موكله وليس في هذا إسقاط فعل الوكيل عنه عن أن يكون وكيلا و إنما فيه إثبات النيابة له عن غيره و إن أردت أن الله خالق بيعته فهذا المعنى صحيح عند أهل السنة المثبتة للقدر الذي هو خلق الله خلافا لنفاته و لكن إذا فسرت الآية بهذا سويت بين الأنبياء و الشياطين و بين آدم و إبليس و بين موسى و فرعون و بين أولياء الله و أعدائه و لزمك أن تقول كفر الكافرين في الصورة و لربهم في المعنى أو لعنته للكفار هي للكفار في الصورة و لربهم في المعنى و أيضا فيقال لك المبايعة فيها فعل من الرسول و فعل من الصحابة فعلى هذا التقدير يلزمك أن يكون الله بايع في المعنى لأنه خالق للأفعال و إلا فإذا جاز أن يقول البيعة له في الصورة و لربه في المعنى لكون الله خالقه و خالق فعله لزمك أن تقول بيعته لهم بيعة لله في المعنى لأن الله تعالى خلقهم و خلق أفعالهم و يلزمك على هذا التقدير أن تقول إن الذين بايعتهم إنما بايعت الله و طرده أن من قاتل شخصا فإنما قاتل الله ومن بايعه فإنما بايع الله بل يلزمهم أقبح من هذا وهو

أن من لامسه أو جامعه أو ضاجعه فإنما يفعل ذلك مع الله فإن أصل هذا القول أن الله لما كان خالقا لأفعال العباد كان الفعل لهم في الصورة وله في المعنى وهذا عام في كل الأفعال الخير و الشر و إن أردت معنى ثالثا فبينه   الوجه السادس قوله البيعة و إن كانت في الصورة له فهي مع ربه في المعنى إذا لم يرد معنى الإرسال و التبليغ المختص بالأمر و النهي كان مقتضاه أن الرسول لم يفعل شيئا ولا بايع و لكن الرب سبحانه هو الذي فعل ذلك في المعنى وهذا و إن أريد به خلق الأفعال فقد تقدم بيان بطلان إرادة ذلك هنا و إن أريد به خلق الحلول بأن يكون الرب سبحانه هو المتكلم على لسان الرسول كما أن الجني يتكلم على لسان المصروع وفي الباطن للجني فهذا هو الكفر الصريح و هذا مذهب النصارى   و هؤلاء يشبهون بالنصارى في كثير من أمورهم و لهذا سلط الله عليهم النصارى يهينونهم كما أهانوا أهل هذا الشخص و أمثاله و كنت أقول لهم إن الله وعد بنصره المؤمنين على الكافرين و أنتم مشابهون للنصارى و فيهم من هو أكفر من النصارى و أعظم إلحادا و نفاقا من النصارى و كثير من بغضهم للنصارى إنما هو لهوى و حظ كونهم لهم في الدنيا رياسة و مال كثير أكثر منهم لا يبغضونهم لأجل كفرهم و دينهم إذ كانوا مشاركين لهم في كثير مهم منه و بعضهم أشد كفرا و نفاقا من النصارى و بعض النصارى أكفر منهم و طائفة من شيوخهم يميلون إلى النصارى أكثر من المسلمين و يأمرونهم بالبقاء على دينهم ويقولون إذا صرتم محققين على طريقتنا فلا حاجة لكم إلى الإسلام بل دوموا على النصرانية   ثم إن الآية يمتنع أن يراد بها الحلول فإنه قال يد الله فوق أيديهم و يد النبي صلى الله عليه و سلم كانت مع أيديهم لا فوقها فلم تكن يده يد الله و لأنه قال و من أوفى بما عاهد عليه الله

فسيؤتيه أجرا عظيما ولم يقل فإنك تؤتيه وقال لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم ولم يقل إنك أنت علمت ما في قلوبهم ولا أنزلت السكينة عليهم الوجه السابع قوله فكأنه يقول الاستغاثة و إن وقعت بي فإني لست المستغاث به في المعنى و إنما المستغاث به الله فيقال إنه لم يقل لم تستغيثوا بي و إنما استغثتم الله ولكن قال إنه لا يستغاث بي و إنما يستغاث بالله وهذا نفي للمستقبل لا للحاضر الوجه الثامن إن يقال هذا الرجل فسر الاستغاثة بالتوسل كما تقدم قوله إن كل من توسل إلى الله بنبيه في تفريج كربة فقد استغاث به سواء كانت بلفظ الاستغاثة أو التوسل أو غيره وقال قول القائل أتوسل إليك برسولك و أستغيث برسولك عندك أن تغفر لي استغاث بالرسول حقيقة في لغة جميع الأمة و هذا الكلام و إن كان باطلا كما تقدم فالمقصود هنا أنه جعل الذي يسأل الله به مستغيثا به وهنا قد جعل الاستغاثة بسؤاله فقد جعل المستغيث به مستغيثا بالله فالمعنى لا يصح إذا أريد به السؤال به فإن الله تعالى هو مسؤول لا مسؤول به و حينئذ فما قال في الاستغاثة به هنا يناقض ما تقدم إلا أن يجعل الاستغاثة تعم النوعين فيلزمه أن يجعل كل من سأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فإنما سأل الله و يلزمه ذلك في غيره و حينئذ فيسأل المخلوق كما يسأل الخالق وهذا لا يقوله عاقل فضلا عن مسلم الوجه التاسع أنه لو صح هذا النفي و الإثبات باعتبار القيومية لقيل هذا لكل من كان كذلك فيقال لمن بايع الناس كلهم وواجرهم و شاركهم إنك إنما بايعت الله وواجرت الله و شاركت الله ويقال للذي استغاث بموسى الذي قال الله تعالى فيه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه إنه لم يستغث بموسى و إنما استغاث الله تعالى و

يقال لمن استنصر المؤمنين الذين قال الله تعالى فيهم و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إنما استنصروا الله و النصر على الله   و يقال في قوله تعالى و تعاونوا على البر و التقوى و اتقوا الله يعين   وقد خاطبني مرة شيخ من شيوخ هؤلاء الضلال لما قدم التتار آخر قدماتهم و كنت أحرض الناس على جهادهم فقال لي هذا الشيخ أقاتل الله فقلت له هؤلاء التتار هم الله وهم من شر الخلق هؤلاء إنما هم عباد الله خارجون عن دين الله و إن قدر أنهم كما يقولون فالذي يقاتلهم هو الله ويكون الله يقاتل الله و قول هذا الشيخ لازم لهذا و أمثاله   الوجه العاشر أن يقال إذا كان الأمر كما ذكرته من شهود القيومية فأي مدح في هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم و أي فائدة في هذا القول أو ترى الصديق و الصحابة ما كانوا يقرون بأن الله رب كل شيء و مليكه و أن العبد لا يمكنه أن يفعل شيئا إلا بمشيئة الله و قدرته   الوجه الحادي عشر أن ما كان من هذا الباب لا يجوز فيه نفي الفعل عن العبد فلأنه مكابرة للحس ولو على مذهب الجبرية بل إذا أريد نفي الواقع فلا بد من قرينة تبين المراد و الحديث مطلق ليس فيه قرينة الوجه الثاني عشر و أما حديث أبي موسى الأشعري وقوله ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم لم يرد به النبي صلى الله عليه وسلم كون الله خالق أفعال العباد فإن هذا يتناول هذا الفعل و غيره من الأفعال ومعلوم أنه لم يقل لم أركب و لكن الله ركب ولم يقل ما جاهدت في سبيل الله ولكن الله جاهد ولا سافرت ولكن الله سافر و نحو ذلك بل النبي صلى الله عليه وسلم لما سألوه أن يحملهم قال والله ما أحملكم و ما عندي ما أحملكم عليه فلما ذهب أبو موسى بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهب إبل فأمر فبعث منها إلينا بخمس ذود غر الذرى فقلنا تغفلنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم يمينه لا نفلح أبدا فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم فلما لم يكن منه قصد ولا قدرة صح أن يقول ما حملتكم لأني لم يكن عندي ما أحملكم عليه و لكن الله حملكم بما يسره من الحمولة التي أتى بها بغير فعل مني فنفى الحمل عن نفسه و أضافه إلى الله تعالى لأنه أراد به تيسير الحمولة ولم يكن له في هذا فعل ثم قال و إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير و تحللتها وقال لهم هذا لما قالوا إنك حلفت أن لا تحملنا وكان قد قال ما عندي ما أحملكم عليه فبين لهم أني حلفت للعسرة و العجز و أن الله يسر بالحمولة فهو الذي حملكم ومع هذا فإني أحنث في يميني للمصلحة الراجحة و أكفر وهذا الكلام يتضمن إما جوابين من النبي صلى الله عليه و سلم كل منهما مستقل و إما الجواب بأحدهما كأنه يقول أنا ما حملتكم و إن كنت حملتكم فأنا أكفر وعلى الأول يقول الحمل الذي طلبتموه ما حصل مني بل من الله و الحمل الذي حلفت عليه أكفر عنه الوجه الثالث عشر قوله فإن صح هذا الحديث لا يكون كما قال من جعل الصديق بتأويله مخطئا من غير ضرورة بل يكون الحديث حثا على الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم فيقال أنت الذي جعلته مخطئا حيث قال إنه يستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ما أثبته و قال ليس ه هذا استغاثة بي بل بالله بل قولكم يستلزم تخطئة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعلتم من طلب من مخلوق حاجة لم يطلبها منه و إنما يطلبها من الله وهذا مكابرة للحس و الشرع و العقل و على ما قاله يجوز أن يقال لمن سأل كافرا حاجة و استغاث به ما سألته ولا استغثت به و يكون من قال إنه سأل كافرا مخطئا وهذا كما أنه تخطئة منهم

للصديق فهي تخطئة لجميع عقلاء بني آدم من المسلمين و الكفار   و أيضا فإنه لا يلزم على ما ذكر المجيب تخطئة أبي بكر الصديق فإن الصديق قد يعتقد عن النبي صلى الله عليه وسلم في دفع ذلك المنافق بعض الأمور التي يقدر عليها البشر فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أنه ليس عندي في دفعه حيلة بل يستغاث الله في أمره   ومن المعلوم أن المطلوب من النبي صلى الله عليه وسلم تارة يقدر عليه وتارة لا يقدر عليه وقد يظن السائل أنه يقدر عليه ولا يكون قادرا وكان نساؤه يسألنه النفقة أحيانا وليس عنده ما ينفق عليهن و سألته الأعراب حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال ردوا علي ردائي فوالذي نفسي بيده لو أن عندي عدد هذه العضاه نعما لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا و حقيقة قوله لا يستغاث بي و إن كان مراده الاستغاثة الكلية كما يقال لا يستغاث بي ولا يتوكل علي ولا أدعى و لا أسأل و نحو ذلك فمراده النهي عن الطلب الذي لا يفعله إلا الله تعالى كما نهى عن السجود له و كما نهى أن يقال ما شاء الله و شاء محمد   و قال لمن قال ما شاء الله و شاء محمد ما روي عن ابن عباس قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله و شئت فقال أجعلتني لله ندا قل ما شاء الله وحده   رواه النسائي و ابن ماجة و رواه الإمام أحمد و لفظه أجعلتني لله عدلا بل ما شاء الله وحده   الوجه الرابع عشر أنه إذا كان هذا حثا على الاستغاثة به بناء على ماذكرت من شهود القيومية و توحيد الربوبية وهذا عام لكل المخلوقات فينبغي أن يحث على سؤال المخلوقين و الرغبة إليهم لأن السائل لهم عنده لا يسألهم إنما يسأل الله تعالى كما أن المستغيث بمخلوق لا يستغيث به إنما يستغيث بالله تعالى على زعمكم وهذا كثيرا ما يقع فيه هؤلاء الإسماعيلية الاتحادية و

أعرف منهم شخصا كان معظما و كان له حاجة إلى نصراني فذهب إليه و خضع له و قبل يده و رجله و ربما قبل نعله حتى قضى حاجته ثم جعل يقول ما رأيت إلا الله و ما كان ذلك الخضوع و التقبيل إلا لله عز وجل وهؤلاء يصرحون في كتبهم بأن عباد العجل ما عبدوا إلا الله و عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله و عباد المسيح ما عبدوا إلا الله تعالى و عندهم من عبد كل معبود كان محققا موحدا وإنما المقصر عندهم من عبد بعض المظاهر دون بعض كالنصارى و عباد العجل و اللات و العزى وفي كلام ابن عربي صاحب الفصوص و أمثاله من هذا ألوان لكن هذا الرجل و أمثاله لم يصلوا إلى الاتحاد بل وقفوا عند القدر وهو شهود القيومية ولكن إذا جعلوا من استغاث بمخلوق فإنما استغاث بالله لأجل توحيد الربوبية و شهود القيومية لزمهم أن من سجد لمخلوق لم يسجد إلا لله و من عبد مخلوقا إنما عبد الله ومن سأل مخلوقا إنما سأل الله فإن قالوا الأعمال بالنيات قيل لهم و الذين قالوا نستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم لم يذكروا أنهم قصدوا غيره و أنتم جعلتم ذلك بمجرده استغاثة بالله لشهود القيومية و جعلتم النبي أمر بالاستغاثة بالمخلوق لشهود القيومية فيلزمكم أن يكون الله و رسوله أمر بسؤال المخلوق والاستغاثة بالمخلوق وعبادة المخلوق بالسجود لمخلوق و الخوف من المخلوق لأجل القيومية فيلزم أن يكون كل شرك حرمه الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وسلم قد أمر الله به و رسوله باعتبار القيومية لأن كل ما عبد من دون الله فالقيومية تتناوله فإذا كان اعتبارا مسوغا لأن يعامل المخلوق معاملة الخالق لزم أن يعامل المخلوقات كلها معاملة الخالق من دعاء و سؤال يصلي لها و يسجد لها و يعبد الوجه الخامس عشر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن سؤال المخلوقين

لغير ضرورة و مدح من لا يسأل الناس شيئا فقال من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته كدوشا أو خموشا في وجهه يوم القيامة

وقال لا تزال المسألة بأحدهم حتى يأتي ليس في وجهه مزعة لحم وقال لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع أو دم موجع أو فقر مدقع وقال أيضا في حديث قبيصة بن مخارق إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة الغارم و الذي أصابته جائحة اجتاحت ماله والذي أصابته فاقة حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجى من قومه لقد أصابت فلانا فاقة وقال في صفة السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون و حديثهم في الصحيحين فمدحهم على ترك الاسترقاء وقد روي في بعض ألفاظه لا يرقون ولم يذكره البخاري فإنه لا يثبت و إن رواه مسلم ومعلوم أن المسترقي يقول لغيره ارقني فيطلب من غيره الرقية و إن كان شهود القيومية معتبرا في سؤال الخلق وجب أن يكون المسترقي إنما سأل الله و كان يكون مأمورا بالاستغاثة بالخلق باعتبار مشهد القيومية وقد قال الله تعالى فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب فإن كان مشهد القيومية معتبرا في هذا الباب كان كل من سأل مخلوقا فإنما رغب إلى الله فلا ينهى عن ذلك بل يؤمر بالرغبة إلى الخالق و الله تعالى قد وصف الفقراء الممدوحين بأنهم لا يسألون الناس إلحافا و سواء كان المعنى أنهم لا يسألون الناس أو يسألون الناس ولا يلحفون فإن كان مشهد القيومية معتبرا هنا وجب أن يؤمر بسؤال الخلق والإلحاح في مسألتهم فإنهم إنما يلحفون في مسألة الله تعالى والله يحب الملحين في الدعاء وهذا باب واسع الوجه السادس عشر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح من لا يسأله وفضله على من يسأله بل ذم كثيرا من سأله

فقال من سألنا أعطيناه ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا   وقال يسألني أحدهم المسألة ويخرج بها يتأبطها نارا قالوا يا رسول الله فلم تعطهم فقال يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل   وقال والذي نفسي بيده ما من أحد يسألني شيئا فتخرج له المسألة ما لم أكن أعطيه فيبارك له فيه   أو كما قال لحكيم بن حزام في الحديث الصحيح الذي أخرجاه في الصحيحين قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال يا حكيم ما أنكر مسألتك إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع قال حكيم فقلت يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أرزا أحد بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا هذا لفظ رواية البخاري   وفي رواية ولا تكون يد أحد من العرب فوق يدي أبدا   فكان أبو بكر وعمر يعطيانه حقه من بيت المال فلا يأخذه فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم على زعم هذا قد جعل من استغاث به فإنما استغاث بالله وقد حضه على ذلك كمن سأل الله فيلزم أن يحض الناس على سؤاله والأمر بالعكس بل مدح من لم يسأله وذم كثيرا ممن سأله   وأما الوجه الثاني وهو قوله إنه يصح أن يراد أنه لا يستغاث بي على وجه التأثير والاقتدار إنما ذلك لله وفائدة التنبيه على ذلك أن لا يتعلق به صلى الله عليه وسلم أحد في الانتصار به من جهة السببية الظاهرة كما يتعلق الناس بالأسباب على الغفلة بل يكون تعلقهم بالنظر إلى جانب الربوبية فيه ومكانته عند ربه فيكون ذلك كما قال من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس الخبر   فالجواب عنه من وجوه أحدها أن هذا الذي ذكره موافق في المعني لما ذكره المجيب فإنه لا ريب أنه يجوز أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أمورا ويستغاث به في أشياء

بل يجوز هذا في حق غير النبي صلى الله عليه وسلم وقد قال في أول الجواب أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة ثم أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفقت عليه الصحابة واستفاضت به السنن من أنه يشفع لأهل الكبائر من أمته ويشفع أيضا لعموم الخلق وأجمعوا على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في حياته بحضرته كما في حديث عمر رضي الله تعالى عنه اللهم إنا كنا نتوسل بنبينا فتسقينا والذي ذكره عمر قد جاء مفسرا في سائر أحاديث الاستسقاء وهو من جنس الاستشفاع به وهو أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ويطلب من الله أن يقبل دعائه وشفاعته فينا وأن يقدم بين أيدينا شافعا وسائلا بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم فقد بين أنه يجوز سؤاله والطلب منه وهو الاستغاثة ومعلوم أن هذا من جملة الأسباب التي تفعل على جهة التسبب مع التوكل على الله تعالى عز وجل لا يطلب من مخلوق شيء على جهة أنه مستقل بالقدرة والتأثير فإن الاستقلال من خصائص الرب جل وعلا وإذا كان هذا الوجه متفقا عليه فحمل الحديث عليه لا يضر وحينئذ فالمطلوب منه إما أن يكون قادرا عليه وإما أن لا يكون قادرا فإن كان قادرا طلب على هذا الوجه وإن لم يكن قادرا عليه طلب من الله ولا منافاة بين المعنيين لكن ظاهر لفظ الحديث إن صح يقتضي أنه لم يكن قادرا على دفع ضرر ذلك المنافق وأنه أمرهم أن يستغيثوا فيه بالله تعالى الوجه الثاني أن يقال الأسباب المخلوقة ولمشروعة لا تنكر والأسباب المشروعة تفعل مع التوكل على الله تعالى لكن لم قلتم إن الاستغاثة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق هو من الأسباب المشروعة والكلام إنما هو في هذا وهذا هو الذي

نهى عنه فالجواب حيث قيل فأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يجوز أن يطلب إلا من الله تعالى لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من غيرهم فلا يجوز أن يقال لغير الله اغفر لنا واسقنا الغيث وانصرنا على القوم الكافرين أو اهد قلوبنا ونحو ذلك ثم ذكر الحديث المذكور فبين أن المنهي عنه أن يطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق والطالب من النبي صلى الله عليه وسلم قد يظن أنه يقدر على قضاء حاجته ولا يكون كذلك كما كان سأله الناس إما نساؤه وإما غيرهن ما ليس عنده وكما كان الناس يأتونه في غزوة تبوك ليحملهم فلا يجد ما يحملهم عليه قال تعالى ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون وكما سأله أبو موسى الأشعري وأصحابه الأشعريون أن يحملهم فقال والله ما أحملكم وما عندي ما أحملكم عليه وكان هؤلاء الأشعريون من خيار الصحابة ظنوه قادرا على حاجتهم ولم يكن كذلك وفي الصحيحين أن فاطمة ابنته جاءت تسأله خادما فأتاها بعد أن نامت هي وعلي رضي ا لله عنهما فعلمها أن تسبح وتحمد وتكبر وقال ذلك خير لك من خادم ولم يعطها وقد قال الله تعالى وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا فأمر الله تعالى إذا لم يجد ما يعطي السائل أن يقول له قولا ميسورا وفي صفته أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه طالب حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول وقد قال تعالى قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى وقال تعالى فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ولما قدم عليه وفد هوازن مسلمين سألوه أن يرد عليهم السبي و المال فقال أحب

الحديث إلي أصدقه ومعي من ترون فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبي و أما المال فهو تارة يسأل ما يقدر عليه وتارة يسأل ما لا يقدر عليه فهذا الحديث إن كان صحيحا فقد سأله بعض أصحابه أن يدفع عنهم ضرر ذلك المنافق فأخرهم أنه لا يقدر عليه بل يطلب ذلك من الله تعالى كما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إليه أبو عبيدة بن الجراح عام اليرموك يستنصره على الكفار و يخبره أنه قد نزل بهم جموع لا طاقة لهم بها فلما وصل كتابه بكى الناس و كان من أشدهم عبد الرحمن بن عوف و أشار علي عمر أن يخرج بالناس فرأى عمر أن ذلك لا يمكن و كتب إلى أبي عبيدة مهما ينزل بامرئ مسلم من شدة فينزلها بالله يجعل الله له فرجا و مخرجا فإذا جاءك كتابي هذا فاستعن بالله و قاتلهم فأخبره أنه لا يمكنه أن يعاونه في هذه القضية و أمره أن يستعين بالله وإن كان قد يمكنه أن يعينه الوجه الثالث أنه لو أريد هذا المعنى لقيل ما يدل على هذا المعنى مثل أن يقال توكلوا علي و أنا أغيثكم ولم يقل إنه لا يستغاث بي و إنما يستغاث بالله فإنه قد نفى و أثبت بكلام مطلق وليس في الباب ما يدل على ما ذكر و يظهر هذا بالوجه الرابع وهو أن أبا بكر و غيره من الصحابة أعلم بالله من أن يظنوا أنه يستقل بالإبداع و الاختراع فمن حمل الحديث على هذا فقد نسب الصديق رضي الله عنه إلى غاية الضلال أين من ينزه الصديق من الخطأ ومن ينسبه إلى هذا و النبي صلى الله عليه وسلم نفى و أثبت و إن كان ما نفاه لم يخطر بقلوبهم فأي حاجة إلى نفيه و إن قيل إنهم ظنوه فذلك بهتان عظيم بخلاف ظنهم أنه يقدر على دفع المكروه فإن هذا الظن قد كان يقع منهم كثيرا وقد يكون الأمر كما يظنه الظان فليس فيه قدح لا في الصحابة رضي الله عنهم ولا في الرسول بخلاف من يقول لا تعتقدوا في

أني مثل الله أقدر و أستقل بالتأثير كما يفعله الله فإن هذا المعنى لا يظنه به من هو دون الصحابة فكيف يظنونه هم و من أراد أن يأمر غيره بالتوكل مع السبب المأمور به لا ينهاه عن السبب بل يقول له كما قال اعقلها و توكل و كما قال النبي صلى الله عليه و سلم في الحديث الصحيح احرص على ما ينفعك و استعن بالله ولا تعجز و كما قال تعالى فإذا عزمت فتوكل على الله و كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمن يبعثه في السرايا ادعهم إلى الإسلام ثم الهجرة و إلا فالجزية فإن أجابوك و إلا فاستعن بالله و قاتلهم لا يقال في مثل هذا ولا يقاتل ولا تحرص على ما ينفعك الوجه الخامس أن الحديث الذي ذكره حجة عليه وهو حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أوشك له بالغنى إما بموت عاجل أو غنى عاجل رواه أبو داود و الترمذي و صححه فإنزال الفاقة بالناس أن يشكو إليهم يترك الشكوى إلى الله فلو كانت الاستغاثة بالمخلوق جائزة لجاز إنزالها بالناس وقد قال يعقوب عليه السلام إنما أشكو بثي و حزني إلى الله وقال تعالى فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما إذا سألت فسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله و رأى الفضيل بن عياض رجلا يشكو إلى رجل فقال يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك وقال بعضهم ذكر الله الصبر الجميل و الصفح الجميل و الهجر الجميل فالصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق و الهجر الجميل الذي ليس فيه أذى و الصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب و أما قوله المراد بالخبر التنبيه على الرجوع إلى الله تعالى بالقلب لا ترك السبب بل أن يذكر الله تعالى في ذلك السبب فيقال

الأسباب نوعان سبب مأمور به فهذا طاعة و عبادة لله كطلب الرزق بالصناعة و التجارة 2و كدفع العدو بالقتال و الأكل عن الجوع و اللباس عند البرد فهذا ليس فيه إنزال الفاقة بهم ولا شكوى إليهم و أما نفس سؤال الناس فسؤالهم في الأصل محرم بالنصوص المحرمة له و إنما يباح عند الضرورة و تنازع العلماء هل يجب سؤالهم عند الضرورة فالمنصوص عن أحمد أنه لا يجب سؤال الخلق مع إيجابه مع غيره من الأئمة الأربعة و غيرهم الأكل من الميتة عن الضرورة فإن الله سبحانه و تعالى لم يوجب سؤال الخلق بل قد وصى النبي صلى الله عليه وسلم طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناس شيئا و كان أحدهم إذا سقط سوطه لا يقول لأحد ناولني إياه منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه و صاحب الفاقة إذا أنزلها بالله تعالى أنزلها بالغني الملي العليم القدير إذا سأل الله تعالى و قيل يجب السؤال و هذا منقول عن الثوري وهو اختيار أبي الفرج ابن الجوزي وعلى هذا قال قائل يسأل الناس ما يجب عليهم أن يعطوه إياه إما من الزكاة و إما من غيرها فإن إطعام الجائع فرض على الكفاية من الناس كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عودوا المريض و أطعموا الجائع و فكوا العاني وقد جاء في الحديث لو صدق السائل ما أفلح من رده ونقل المروزي عن أحمد أنه إذا علم صدق السائل وجب أن يعطيه قال تعالى و الذين في أموالهم حق معلوم للسائل و المحروم و إذا كان يسألهم ما أوجب الله تعالى عليهم كان بمنزلة أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه الذي جعل الله له في المال و سؤال ذي السلطان جائز كمن سأل المودع أن يرد عليه وديعته و أن يعطيه حقه من الميراث و المغنم أو نحو ذلك و على هذا فليس للسائل أن يسال من لا فضل عنده و ليس له أن يعتدي في

السؤال على الناس و ليس له أن يجزع و يعدل عن الصبر الجميل و عليه أن يرغب إلى الله تعالى و يتوكل عليه وحينئذ فلا يكون قد أنزلها بالناس مع أن القول الأول وهو عدم وجوب السؤال أظهر فإن النصوص تقتضي أن ترك سؤال الخلق أفضل مطلقا و لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في صفة السبعين ألفا هم الذين لا يسترقون و المسترقي يطلب الرقية و الدعاء من الراقي وقد قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه فقد بين أنه كافي من توكل عليه وأنه لا بد أن يرزق المتقي من حيث لا يحتسب والميتة رزق ساقه الله إليه عند الضرورة فليس له أن يمتنع من أكله فيعين على قتل نفسه ولو أتاه مال من غير مسألة ولا إشراف نفس أخذه وهذا كله يدل على أن سؤال الخلق والاستغاثة بهم حرام في الأصل لا يباح إلا لضرورة وهو في الأظهر أشد تحريما من الميتة فكيف يقال إنه مأمور به فيما لا يقدر عليه الخلق وهو قال أحد إن سؤال المخلوق والاستغاثة به فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى مأمور به أو مباح ومن هنا يظهر الوجه السادس قوله والمراد به التنبيه على الرجوع إلى الله تعالى بالقلب لا بترك السبب بل أن يذكر الله تعالى في ذلك السبب فيقال له هذا إنما يصح إذا كان السبب مشروعا فإن السبب المشروع 2لا ينافي التوكل والكلام هنا فيمن يستغيث بالخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله كما قيل في الجواب فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فلا يجوز أن يطلب إلا من الله تعالى لا يطلب ذلك لا من الملائكة ولا من الأنبياء ولا من غيرهم ومعلوم أن سؤال الخلق مثل هذا باطل شرعا وعقلا فمن الذي جعل هذا من الأسباب الشرعية ومن قال أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا لم يكن عنده شيء يعطيه فينبغي للإنسان أن يسأله ويستغيث به

وإذا لم يمكنه دفع العدو ينبغي للإنسان أن يسأله ويستغيث به في ذلك وقد تقدمت النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان يمدح من لا يسأله مطلقا ويذم من يسأله ما لا يحب أن يعطيه ويذم من يسأله ما لا يقدر عليه فسؤاله والاستغاثة في ذلك أذى وعدوان عليه يحرم فعله معه صلى الله عليه وسلم أعظم مما يحرم أذى غيره والعدوان عليه مع ما فيه من الشرك والجزع وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم نهوا أن يسألوه كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم هذا وإن كان في سؤال العلم أحيانا فسؤال الدنيا أولى وقد ذم من كان يسأل الرسل الآيات قال تعالى أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل وقال تعالى يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ولو كان يجوز السؤال والاستغاثة به في كل ما يسأل الله ويستغاث به فيه كما قال هؤلاء المفترون إنه تجوز الاستغاثة به وبغيره من الصالحين في كل ما يستغاث الله فيه لم يحرم من مسألته إلا ما يحرم من مسألة الله تعالى والعبد يجوز أن يسأل الله الرزق والعافية والنصر على الأعداء والهداية والنبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يسأله احد كل ما يقدر عليه فضلا عن أن يسأله ما لا يقدر عليه لما في ذلك من الأذى والعدوان عليه وهو أحق بالتعزيز والتوقير من غيره فإذا كان يحرم أذى غيره بذلك فأذاه أولى بالتحريم بل أذاه كفر وأذى المؤمنين ذنب قال تعالى إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا والذين يؤذون

المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا فصل قال وكثيرا ما تنفى الأشياء في النصوص الشرعية إشارة إلى التوحيد ويثبته الباري سبحانه وتعالى في مواضع أخر اعتبارا بالأسباب وإثباتا لبساط الحكمة فيأتي هذا المبتدع فيخلط في الحقائق ويلحد في الآيات كما قال في الإغاثة والنصرة وغيرهما إنها لا تصح في الخلق ولا يسألونها ولا تضاف إليه وأخطأ في ذلك فإن هذه الحقائق تثبت للمخلوقات حقيقة لغوية بإجماع العلماء ونصوص الكتاب والسنة اعتبارا بالسبب والحكمة وتنفي عن الخلق إشارة للتوحيد وانفرادا للباري بخلقها كما انفرد بخلق غيرها كما قال سبحانه وتعالى من بساط التوحيد وما النصر إلا من عند الله وقال عز وجل إنك لا تهدي من أحببت وقال إياك نعبد وإياك نستعين ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وأنك لتهدي إلى صراط مستقيم وقال وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر وفي الصحيح انصر أخاك ظالما أو مظلوما وقال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وقال تعالى وتعاونوا على البر والتقوى وفي الصحيح والله عون العبد ما كان العبد في عون أخيه وأعنى على نفسك بكثرة السجود وجمع الوجهين في قوله تعالى وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى فيقال في هذا الكلام من الكذب والافتراء والظلم والاعتداء والجهل والضلال ما يظهر عند التأمل وجوابه من وجوه الأول إن لفظ المذكور جواب المسألة التي سألها واعترض بعد جوابها قد ثبت بالسنة المستفيضة المتواترة باتفاق الأمة أن النبي صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به ويطلبون منه أن يشفع لهم ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد وأما الخوارج

والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ولم ينكروا شفاعته للمؤمنين إلا ما يحكى عن طائفة قليلة منهم وهؤلاء مبتدعة ضلال وفي تكفيرهم نزاع وتفضيل ومن أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة عليه وسواء سمى هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه وكذلك من أقر بشفاعته في الآخرة وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به كما رواه البخاري في صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقوا بالعباس رضي الله عنه وقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون وفي سنن أبي داود وغيره أن أعرابيا قال للنبي صلى الله عليه وسلم جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله تعالى لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال ويحك إن الله تعالى لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك وذكر تمام الحديث فأنكر قوله نستشفع بالله عليك ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله بل أقره عليه فعلم جوازه فمن أنكر هذا فهو مخطئ ضال مبتدع وفي كفره نزاع وتفصيل وأما من أقر بما ثبت في الكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ولكن قال إنه لا يدعى إلا الله تعالى وإن الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى فلا تطلب إلا منه مثل غفران الذنوب وهداية القلوب وإنزال المطر وإنبات النبات ونحو ذلك فهذا مصيب في ذلك هذا مما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضا كما قال تعالى ومن يغفر الذنوب إلا الله وقال تعالى إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وكما قال تعالى يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض وكما قال

تعالى وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله   وقال إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا   فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة يجب إثباتها والمعاني المنفية بالكتاب والسنة يجب نفيها والعبارة الدالة على المعاني نفيا وإثباتا إن وجدت في كتاب الله تعالى وكلام رسوله وجب إقرارها وإن وجدت في كلام احد فظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه وإلا رجع إليه فيه   وقد يكون في كلام الله ورسوله عبارة لها معنى صحيح لكن بعض الناس يفهم من تلك العبارة غير مراد الله ورسوله فهذا يرد عليه فهمه كما روى الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر الصديق قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل   فهذا إنما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثاني وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يطلبون منه الدعاء و يستسقون به كما في صحيح البخاري عن ابن عمر قال ربما ذكرت قول الشاعر و أنا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقي فما ينزل حتى يجيش له الميزاب و أبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل وهو قول أبي طالب   و لهذا قال المصنفون في أسماء الله تعالى يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله تعالى و أن كل غوث فمن عنده و إن كان جعل ذلك على يد غيره فالحقيقة له سبحانه و تعالى و لغيره مجازا   قالوا و من أسمائه المغيث و الغياث و جاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة رضي

الله عنه قالوا جميعا و أجمعت الأمة على ذلك وقال أبو عبيد الله الحليمي الغياث هو الغيث و أكثر ما يقال غياث المستغيثين و معناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه و مريحهم و مخلصهم وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين اللهم أغثنا اللهم أغثنا يقال أغاثه إغاثة و غوثا وهذا الاسم في هذا المعنى مجيب و المجيب المستجيب قال تعالى إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال و الاستجابة أحق بالأقوال وقد يقع كل منهما موقع الآخر قالوا و الفرق بين المستغيث و الداعي أن المستغيث ينادي بالغوث و الداعي ينادي بالمدعو وقد تقدم حكاية هذا إلى آخره فليس هذا موضع استقصائه وفيه و الاستغاثة بالرسول بمعنى أن يطلب من الرسول ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم كما أنه يستغاث بغيره بمعنى أنه يطلب منه ما يليق به ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به و إما مخطئ ضال و أما المعنى الذي نفاه الرسول صلى الله عليه وسلم فهي أيضا مما يجب نفيها ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضا كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها و من هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي الشيخ المشهور بالديار المصرية وغيرها استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون وفي دعاء موسى عليه السلام اللهم لك الحمد وإليك المشتكى و أنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان و لا حول ولا قوة إلا بالله و لما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق صح إطلاق نفيها عما سوى الله عز وجل ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله تعالى ولا أنكر على من نفى مطلق الاستغاثة عن

غير الله تعالى   و كذلك الاستعانة أيضا منها ما لا يصح إلا لله وهي المشار إليها بقوله إياك نعبد و إياك نستعين فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه كما قال تعالى و تعاونوا على البر و التقوى   و كذلك الاستنصار وقال تعالى و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر و النصر المطلق وهو خلق ما به يغلب العدو لا يقدر عليه إلا الله تعالى   فهذه ألفاظ جواب السؤال الذي طلب جوابه كما تقدم ذكر سؤاله و جوابه وقد ذهب إليه الجواب ووقف عليه و زعم أنه يرد عليه فافترى 2 على المجيب بقوله إنه يخلط في الحقائق و يلحد في الآيات كما قال في الإغاثة و النصر و غيرهما إنها لا تصح من الخلق ولا يسألونها ولا تضاف إليهم و أخطأ في ذلك فإن هذه الحقائق تثبت للمخلوقات حقيقة لغوية بإجماع العلماء و نصوص الكتاب والسنة اعتبارا بالسبب و الحكمة و تنفي عن الخلق إشارة إلى التوحيد و انفراد الباري عز وجل بخلقها كما انفرد بخلق غيرها   كما قال تعالى من بساط التوحيد و ما النصر إلا من عند الله   و قال إنك لا تهدي من أحببت   و قال إياك نعبد و إياك نستعين   و قال لنبيه صلى الله عليه وسلم إنك لتهدي إلى صراط مستقيم   وقال و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر   وقال تعالى و تعاونوا على البر و التقوى   فيقال المجيب لم ينفها عن الخلق مطلقا كما ذكرت بل قال وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه كما قال تعالى و تعاونوا على البر والتقوى و كذلك الاستنصار قال تعالى و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر فقد ذكر هاتين الآيتين قبلك وفرق بين ما يضاف إلى المخلوق وما يضاف إلى الخالق من النصر و الإغاثة كما فرق بين هذا وهذا في الإغاثة   فنقلك عنه النفي العام كذب بين ولكن هو فصل فجعل ما يخص به الله الذي لا

يضاف إلى غيره وهو المطلق و إنما يضاف إلى المخلوق ما يليق به و أنت تريد أن تجعل المخلوق عدل الخالق يضاف إليه جميع ما يضاف إلى الرب عز وجل مضاهاة للحلولية و النصارى و المشركين الذين أنت و أمثالك من طلائع جيوشهم و أبواب مدائنهم وهم دعاة إلى مذهبهم في الحقيقة و إن كانوا لا يعلمون لوازم قولهم و هذا بين يكشف ضلال هؤلاء و نقول في الوجه الثاني قوله وكثيرا ما تنفى الأشياء في النصوص الشرعية إشارة إلى التوحيد و يثبته الباري سبحانه و تعالى في مواضع أخر اعتبارا بالأسباب و إثباتا لبساط الحكمة هو كلام باطل فإن الله سبحانه وتعالى لا ينفي شيئا و يثبته إذ الجمع بين نفيه و إثباته تناقض و كلام الله منزه عن التناقض قال الله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ولكن المنفي غير المثبت فالذي ينفيه في موضع ليس هو الذي يثبته في موضع أخر ولكن هؤلاء الضلال يجعلون المنفي عين المثبت فيكون ما يضاف إلى الرب سبحانه و تعالى بطريق التوحيد يضاف إلى غيره بطريق السبب و الحكمة و لهذا قالوا إن كل ما يطلب من الله يطلب من غيره بهذا الطريق فأشركوا في ربوبية الله تعالى وفي دعاء الله تعالى و عبادته حيث جعلوا ما يضاف إلى المخلوق يضاف إليه تعالى فصار حقيقة قولهم أن المخلوق تضاف إليه مفعولات الله تعالى كلها و يطلب منه مقدورات الرب كلها لما في الخلق من السبب و الحكمة ولم يعلم هؤلاء الجهال أن السبب لا يستقل بالتأثير بل تأثيره متوقف على سبب آخر وله موانع و حينئذ فلا يجوز تخصيصه بالإضافة إليه و إن كان سببا و أيضا فالأسباب التي نعرفها مضبوطة و أكثر ما فعله الله و يفعله لا نعرف نحن أسبابه و أيضا أثبتوا أسبابا في خلقه و أمره ما أنزل الله بها من سلطان بل إثباتها مخالف للشرع و العقل فضلوا

في إثبات أسباب لا حقيقة لها وفي الإضافة إليها وفي تعليق الحوادث كلها بسبب واحد وقد حدثني بعض الثقات عن هذا الشخص أنه كان يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم علم مفاتيح الغيب التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم تكذيبا لقوله وردا عليهم خمس لا يعلمها إلا الله تعالى إن الله عنده علم الساعة و ينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت و أظنه ذكر عنه أنه قال علمها بعد أن أخبر أنه لا يعلمها إلا الله تعالى و آخر من جنسه يباشر التدريس و ينسب إلى الفتيا كان يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه الله و إن هذا السر انتقل بعده إلى الحسن ثم انتقل في ذرية الحسن إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي وقالوا هذا مقام القطب الغوث الفرد الجامع وكان شيخ آخر معظم عند أتباعه يدعي هذه المنزلة ويقول إنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم و إنه يزوج عيسى بابنته و إن نواصي الملوك و الأولياء بيده يولي من يشاء و يعزل من يشاء و إن الرب تعالى يناجيه دائما و إن هو الذي يمد حملة العرش و حيتان البحر و قد عزرته تعزيرا بليغا في يوم مشهود بحضرة من أهل المسجد الجامع يوم الجمعة بالقاهرة فعرفه الناس و انكسر بسببه أشباهه من الدجاجلة ومن هؤلاء من يقول في قوله تعالى إنا أرسلناك شاهدا و مبشرا و نذيرا لتؤمنوا بالله و رسوله و تعزروه و توقروه و تسبحوه بكرة و أصيلا يقول إن الرسول هو الذي يسبح بكرة و أصيلا و منهم من يقول أسقط الربوبية وقل في الرسول ما شئت دع ما ادعته النصارى في نبيهم و احكم بما شئت مدحا فيه و احتكم فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم و انسب إلى ذاته ما شئت من شرف و انسب إلى قدره ما

شئت من عظم لو ناسبت قدره آياته عظما أحيا اسمه حين يدعى دارس الرمم و منهم من يقول نحن نعبد الله و رسوله فيجعلون الرسول معبودا و منهم من يأتي قبر الميت الرجل أو المرأة الذي يحسن به الظن لنفسه فيقول اغفر لي و ارحمني ولا توقعني على زلة ولا توقفني على خطيئة 2 ونحو هذا الكلام يرد إلى أمثال هذه الأمور التي يتخذ المخلوق فيها إلها ولما استقر هذا في نفوس عامتهم تجد أحدهم إذا سئل عمن ينهاهم عن هذا ما يقول هذا فيقول فلان عنده ما ثم إلا الله تعالى لما استقر في نفوسهم وهذا كله و أمثاله وقع ونحن بمصر و آخر يقول معظما لمن يدعو إلى التوحيد قد جعل الإله إلها واحدا و المقصود هنا أن نبين خطأه فيما ذكره عن الله من أنه ينفي الأشياء إشارة إلى التوحيد و يثبتها اعتبارا بالأسباب و نبين أنه سبحانه لا ينفي ما أثبته ولا يثبت ما نفاه أما قوله تعالى وما النصر إلى من عند الله فهذا النصر المنفي في هذه الآية عن غير الله لم يثبته الله لغيره قط والذي ذكره في قوله و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ليس هذا هو ذاك يبين هذا أنه قال إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا إلى أن قال وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم وقال تعالى إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى و لتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم فهو سبحانه و تعالى قد أمدهم بالملائكة و معلوم أن نصر الملائكة لهم أعظم من النصر الذي أمروا به في قوله و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر فإن هؤلاء غاية ما يفعلونه دون ما تفعله الملائكة ثم بين أنه و إن نزلت الملائكة وقاتلت فالنصر لا يحصل بمجرد هذا إن لم يحدث الله ما به ينتصر المؤمنون وذلك

لأن المقاتل من الملائكة و البشر غاية قدرته حركة نفسه و أما ما يتولد عن ذلك فهو لا يستقل به و الناس متنازعون في هذا فكثير من النظار المثبتين للقدر يقولون إن جميع المتولدات فعل الله ليس فعلا للعباد مثل الشبع و الري وانقطاع العضو و خروج السهم من القوس و أما القدرية فيقول أكثرهم إنها مفعول فاعل السبب و يقسمون الأفعال إلى مباشر و متولد لكنهم مع هذا يعلمون أن الفعل لا يتم بمجرد قدرة العبد بل بأمور خارجة عن قدرته وقالت الطائفة الثالثة إن هذه المتولدات حادثة بفعل العبد و بالأسباب الأخرى فالعبد مشارك فيها لم ينفوا أثره كما نفاه الأولون ولا جعلوه فاعلا كالآخرين بل جعلوه مشاركا فيها وهذا أعدل الأقوال ولهذا فرق الله تعالى بين الأعمال المباشرة و بين الأعمال المتولدة في قوله تعالى ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح الآية ثم قال ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم فلما كان الإنفاق و السير عملا مباشرا قال فيه كتب لهم وتلك الأمور من النصب و الجوع و غيظ الكفار و النيل من العدو ليس مباشرا بل هو مما يسمى متولدا فلهذا قال فيه إلا كتب لهم به عمل صالح لأنهم مشاركون في حصول هذا الآثار و حصول هذه الآثار لا بد فيه من الأسباب التي يخلقها الله ومن رفع الموانع فلا تجوز أن تجعل مفعولة لسبب معين بل هي مفعولة لله تعالى و انتصار المؤمنين على الكفار هو أعظم من النيل الذي ينال من العدو فإذا لم يكن هذا مفعولا لمخلوق فكيف يكون النصر وهب أن الملائكة نزلت بقذف الرعب في قلوب الكفار كما قال تعالى إذ يوحي ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب

الذين كفروا الرعب و أيضا فهب أن الملائكة حضروا فمن الذي يخلق القدرة فيهم وفي المؤمنين و القدرة التي بها يكون الفعل أكثر لا يكون إلا مع الفعل وهب أن القدرة حصلت فمن يخلق الأسباب الخارجة كقبول الجلود للجرح و حصول الزهوق بعد الجرح و الهزيمة المستمرة إذ يمكن أن الكفار يقرون و يكرون و يمكن أنهم يقاتلون حتى يقتلوا فلا يقتل منهم واحد حتى يقتل غيره فالنصر الذي قال الله تعالى فيه وما النصر إلا من عند الله لا يقدر عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا يقدر عليه إلا الله تعالى ليس في الموجودات سبب يحصل به هذا النصر ولا موجب له إلا مشيئة الله تعالى فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فإن كل ما يكون لسبب فلا بد من حصول سبب آخر ومن رفع موانع ثم خلق الأسباب ورفع الموانع لا بد أن يحدث هو سبحانه ذلك الأثر بفعل منه على أصح قولي الجمهور الذين يقولون إن الخلق غير المخلوق فإن هؤلاء لهم قولان هل يخلق بفعل واحد قديم يوجد جميع الموجودات أم هو يوجد به المفعولات بأفعال متعاقبة كما قال تعالى خلقا من بعد خلق على قولين ومن قال بالثاني قال إن المؤثر التام يستلزم الأثر التام وإلا لزم الترجيح بلا مرجح فإن الفاعل إذا كان قبل حدوث المفعول و حين حدوثه على حال واحدة كان تخصيص أحد الحالين بحدوث المفعول ترجيحا لأحد المتماثلين على الآخر بلا مرجح وهذا ممتنع في صريح العقل فالأثر لا يوجد إلا إذا حصل مؤثره التام فإنه بدون تمامه لا يكون مؤثرا فلا يحصل الأثر وإذا تم وجب حصول الأثر إذ لو لم يجب لأمكن وجوده و أمكن عدمه فكان يتوقف على حدوث شيء آخر فلا يكون المؤثر تاما و هؤلاء يقولون إن القدرة مع الفعل و كذلك الإرادة و سائر ما يتوقف عليه الفعل و إن كان بعض ذلك قد يتقدم عليه و يبقى إلى حين حصوله لكن لا بد من

وجوده معه وهذا الفعل الذي هو تكوين الرب سبحانه وتعالى خارج عن جميع الأسباب المخلوقة و أما قوله إنك لا تهدي من أحببت مع قوله و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم فقد اتفق المسلمون على أن تلك الهداية المنفية ليست هي الهداية المثبتة له لا نزاع في هذا بين أهل السنة و القدرية و أما الهداية المثبتة فهي الدعوة و البيان وهذه يشترك فيها من يحبه ومن لا يحبه فإن عليه البلاغ وقد بلغ صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين وقال في آخر عمره في حجة الوداع اللهم هل بلغت قالوا نعم قال اللهم اشهد و نظير هذا قوله تعالى و أما ثمود فهديناهم وقوله فقالوا أبشر يهدوننا وقال تعالى ولكل قوم هاد فإن الهداية هداية الدلالة و الإرشاد بكلامه و بعلمه و أمره ونهيه و ترغيبه و ترهيبه و أما حصول الهدى في القلب فهذا لا يقدر عليه أحد باتفاق المسلمين سنيهم و قدريهم لأن أحدا لا يستطيع أن يهدي القلوب و يخلق الهدى فيها غير الله أما أهل السنة فيقولون إن الإهتداء الذي في القلب لا يقدر عليه إلا الله ولكن العبد يقدر على أسبابه وهو المطلوب منه بقوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم وهو المنفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله إنك لا تهدي من أحببت وقوله إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وقوله ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء و أما القدرية فيقولون إن ذلك مقدور للعبد ولهذا تنازعوا في العلم الحاصل في القلب عقب الاستدلال فقالت القدرية هو فعل العبد وقالت المثبتة هو مفعول الله كسب للعبد ونظيره و تنازعوا في النظر هل هو متضمن له مستلزم له أو مقترن اقترانا عاديا على قولين مشهورين و التحقيق أنه من جملة الأمور التي تسمى المتولدات كالشبع و الري و الرؤية في العين والسمع في الأذن فهي حاصلة بفعل العبد المقدور و بأسباب خارجة عن

قدرته ولهذا يثاب عليه لما له في حصوله من السبب و الاكتساب و كذلك قوله إياك نعبد و إياك نستعين فإن هذه الاستعانة التي يختص بها الله تبارك و تعالى لم يثبتها لغيره أبدا كما أن العبادة له لم يثبتها لغيره أبدا وقوله تعالى و تعاونوا على البر و التقوى ليس ذلك التعاون هو هذه الإعانة المطلوبة من الله تعالى فإن إعانة الله لعبده على عبادته تكونه بأمور لا يقدر عليها غيره مثل جعل العلم و الهدى في القلب و جعل الإرادة و الطلب في القلب و خلق القوى الباطنة و الظاهرة و خلق الأسباب المنفصلة التي بها تحصل العبادة ومعونة الإنسان لغيره إنما هي بفعله القائم في محل قدرته وهي شيء لا يخرج عنه وما خرج عن محل قدرته فقد تقدم الكلام فيه و غايته أن يكون له فيه شرك و المقصود أن ما أمر الخلق به و جعله فعلا هو الذي نفاه عن غيره و بين أنه يختص به و أما قوله وما رميت إذ رميت فتقدم الكلام عليها و بينا غلط من ظن أن الرمي المنفي عن الرسول هو عين المثبت له و بينا أن المنفي هو وصول الرمي إلى الكفار و تأثيره فيهم و المثبت هو الحذف الذي فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله انصر أخاك ظالما أو مظلوما هو من جنس قوله و إن استنصروكم في الدين فعليكم النصر و أما قوله و استعينوا بالصبر والصلاة فالمستعان به فعل يفعله العبد و المعنى اصبروا و صلوا فإن ذلك يعينكم على المطلوب و الأعمال الصالحة بينها تصادق و تلازم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر و البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق و يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا و كذلك الأعمال السيئة بينها تصادق و تلازم كما قال في نفس هذا الحديث و إياكم و الكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور و إن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل

يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وهداية الصدق مثل إعانة الصبر و الصلاة وليس ذلك هو ما أثبته الله لنفسه و نفاه عن غيره سبحانه وتعالى أن يكون تأثيره مثل تأثير الإعراض وقول النبي صلى الله عليه وسلم والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه هو من جنس قوله تعالى و تعاونوا على البر والتقوى فقد تبين أن جميع ما ذكره من النصوص ليس فيه ان ما نفاه عن غيره أثبته لغيره في موضع آخر بل الذي أثبته لغيره غير الذي نفاه عن غيره الوجه الثالث قوله إن هذه الحقائق تثبت للمخلوقين حقيقة لغوية بإجماع العلماء غايته أن قول العرب مات زيد و تحركت الشجرة وهبت الريح ونحو ذلك يسمى في لغتهم حقيقة وهذا لا ينفعه لأن المضاف إلى المخلوق ليس هو الذي نفاه الرب عن غيره فإنه يقال أماته الله و الإماتة التي اختص الله بها لا تثبت لغيره وإن قيل إن فلانا أماته فالمراد أنه فعل فعلا خلق الله الموت فيه مع أسباب أخر هو من جملتها وهو المضاف إلى العبد ليس هو الذي نفاه الرب عن غيره فما يضاف إلى السبب لم ينفه الله عن غيره وما نفاه لا يضاف إلى السبب و أيضا فهب أن هذا حقيقة لغوية أي قاعدة في هذا الكلام هنا في الحقائق العقلية و الأحكام الشرعية لا في استعمال الألفاظ وليس كل من أضيف إليه الفعل لغة يترتب على ذلك الأحكام الشرعية التي للفاعلين الوجه الرابع قوله اعتبارا بالأسباب و إثباتا لبساط الحكمة ماذا تعنى به فإن الناس يتنازعون في ذلك فمنهم من يقول ليس في الوجود سبب له تأثير و حكمة يفعل لأجلها بلا محض مشيئة الرب قرنت بين الشيئين قرانا عاديا فإن تقدم سمي سببا و إن تأخر سمي حكمة من غير أن يكون للمتقدم تأثير في اقتضاء الفعل ولا للفعل تأثير في

اقتضاء الحكمة   وليس عند هؤلاء في القرآن لام التعليل في فعل الله وهذا قول جهم بن صفوان و كثير من النظار المنتسبين إلى القدر كالأشعري و أتباعه ومن وافقهم من أصحاب مالك و الشافعي و أحمد رضي الله عنهم بل ولا يقولون إن هذا الشخص ينسب إليهم فعلى قولهم لا سبب ولا حكمة ومن الناس من أثبت حكمة منفصلة عن الرب يفعل لأجلها وهو قول المعتزلة و نحوهم من الجهمية   ثم القدرية من هؤلاء يثبتون التأثير لأفعال الحيوان ولا يثبتون تأثيرا لغير ذلك   و أما الفقهاء و أهل الحديث و الصوفية و أهل الكلام كالكرامية و غيرهم فإنهم يثبتون السبب و الحكمة لكن كثير من هؤلاء يتناقض فيتكلم في الفقه بلون وفي أصول الفقه بلون و في أصول الدين بألوان ففي الفقه يثبت الأسباب والحكم وفي أصول الفقه يسمي العلل الشرعية أمارات خلاف ما يقوله في الفقه وفي أصول الدين ينفي الحكمة و التعليل بالكلية لظنه أن قول القدرية لا يمكن إبطاله إلا بذلك و القليل من هؤلاء هو الذي يحقق الحكمة و يبين رجوعها إلى الفاعل الحكيم مع حصول موجبها في مخلوقاته   وهذه المسائل من اشرف العلم وقد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع و المقصود هنا أن ما ذكره هذا الشخص من النصوص ليس فيه إثبات الأسباب و الحكم لأفعال الرب سبحانه و تعالى التي نفاها عن غيره   و بيان ذلك أن الأسباب عند من يقول بإثباتها هي من جملة الحوادث التي يكون الرب عز وجل فاعلا لها فالقول في إحداثه للسبب و الحكمة كالقول في إحداثه ما بينهما يمتنع أن يكون بشيء من ذلك محدثا لغيره بل هو محدث لجميع المحدثات و ليس في ذلك ما يوجب كون الأسباب محدثة   و أيضا فهذه الآيات التي ذكر ليس فيها إثبات حكم شيء من المحدثات كقوله تعالى و إنك لتهدي إلى صراط

مستقيم فعليكم النصر بل ولا فيها إثبات نسب لفعل الرب سبحانه و تعالى بل فيها إثبات بعض أفعال العباد كهدايته و إعانته و أفعال العباد لا تختص بكونها أسباب دون غيرها من الحوادث فكلام هذا الرجل كلام من لم يتصور صحيحا ولا عبر فصيحا الوجه الخامس أن يقال نحن لا ننازع في إثبات ما أثبته الله من الأسباب و الحكم لكن من هو الذي جعل الاستغاثة بالمخلوق و دعاءه سببا في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ومن الذي قال إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر نبيا كان أو غير نبي كان ذلك سببا في حصول الرزق و النصر و الهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ومن الذي شرع ذلك و أمر به ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء و الصحابة و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين إحداهما إن هذه الأسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى و الثانية أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها فإنه ليس كل ما كان سببا كونيا يجوز تعاطيه فإن قتل المسافر قد يكون سببا لأخذ ماله و كلاهما محرم و الدخول في دين النصارى قد يكون سببا لمال يعطونه و محرم و شهادة الزور قد تكون سببا لمال يؤخذ من المشهود له وهو حرام و كثير من الفواحش و الظلم قد يكون سببا لنيل مطالب وهو محرم و السحر و الكهانة سبب في بعض المطالب وهو محرم و كذلك الشرك في مثل دعوة الكواكب و الشياطين و عبادة البشر قد يكون سببا لبعض المطالب وهو محرم فإن الله تعالى حرم من الأسباب ما كانت مفسدته راجحة على مصلحته وإن كان يحصل به بعض الأغراض أحيانا وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين خلقا و أمرا فإنهم مطالبون بالأدلة الشرعية على أن الله عز وجل شرع لخلقه أن يسألوا ميتا أو غائبا و أن يستغيثوا به سواء كان

ذلك عند قبره أو لم يكن عند قبره والله تعالى حي عالم قادر لا يغيب كفى به شهيدا وكفى به عليما وهم لا يقدرون على ذلك بل نقول في الوجه السادس سؤال الميت و الغائب نبيا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين لم يأمر الله به ولا رسوله ولا فعله أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحدا منهم ما كان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت يا سيدي فلان أنا في حسبك أو اقض حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى و الغائبين ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ولا بغيره من الأنبياء لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها وقد كانوا يقفون تلك المواقف العظام في مقابلة المشركين في القتال و يشتد البأس بهم و يظنون الظنون ومع هذا لم يستغث أحد منهم بنبي ولا غيره من المخلوقين ولا أقسموا بمخلوق على الله أصلا ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا قبور غير الأنبياء ولا الصلاة عندها وقد كره العلماء كمالك و غيره أن يقوم الرجل عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لنفسه و ذكروا أن هذا من البدع التي لم يفعلها السلف و أما ما يروى عن بعضهم أنه قال قبر معروف الترياق المجوب وقول بعضهم فلان يدعى عند قبره و قول بعض الشيوخ لمريده إذا كانت لك إلى الله حاجة فاستغث بي أو قال استغث عند قبري ونحو ذلك فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين و أتباعهم و كثير من هؤلاء إذا استغاث بالشيخ رأى صورته و ربما قضى بعض حاجته فيظن أنه الشيخ نفسه أو أنه ملك تصور على صورته و أن هذا من كراماته فيزداد به شركا وفيه مغالاة ولا يعلم أن هذا من جنس ما تفعله الشياطين بعباد

الأوثان حيث تتراءى أحيانا لمن تعبدها و تخاطبهم ببعض الأمور الغائبة و تقضي لهم بعض الطلبات ولكن هذه الأمور كلها بدع محدثة في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة و كذلك المساجد المبنية على القبور التي تسمى المشاهد المحدثة في الإسلام و السفر إليها محدث في الإسلام لم يكن من ذلك شيء في القرون الثلاثة المفضلة بل ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعن الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا قالت عائشة رضي الله عنها ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا و ثبت في الصحيح عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك وقد تقدم في الجواب أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أجدبوا استسقى بالعباس وقال اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا و إنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فلم يذهبوا إلى القبور ولا توسلوا بميت ولا غائب بل توسلوا بالعباس كما كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان توسلهم به توسلهم بدعائه كالإمام مع المأموم وهذا تعذر بموته فأما قول القائل عند ميت من الأنبياء و الصالحين اللهم إني أسألك بفلان أو بجاه فلان أو بحرمة فلان فهذا لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عن التابعين وقد نص غير واحد من العلماء أنه لا يجوز و نقل عن بعضهم جوازه فكيف يقول القائل للميت أنا أستغيث بك و أستجير بك و أنا في حسبك أو سل لي الله و نحو ذلك فتبين أن هذا ليس من الأسباب المشروعة ولو قدر أن له تأثيرا فكيف إذا لم يكن له تأثير صالح بل مفسدته راجحة على مصلحته كأمثاله من دعاء غير الله تعالى و ذلك أن من الناس الذين يستغيثون بغائب ميت من تتمثل له

الشياطين وربما كانت على صورة ذلك الغائب و ربما كلمته وربما قضت له أحيانا بعض حوائجه كما تفعل شياطين الأصنام بعبادها وهذا مما قد جرى لغير واحد فينبغي أن يعرف هذا   ومن هؤلاء من يؤذي الميت بسؤاله إياه أعظم مما يؤذيه لو كان حيا وربما قضيت حاجته مع ذم يلحقه كما كان الرجل يسأل النبي صلى الله عليه وسلم فيعطيه و يقول إن أحدهم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها نارا   ومن هذه الحكاية المذكورة في الذي جاء إلى قبر النبي و طلب منه سكباجا فأتاه بعض أهل المدينة فأطعمه سكباجا و أمره بالخروج من المدينة وقال إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يطعمه و أن يخرجه وقال من يقيم بالمدينة لا يتمنى ذلك أو كما قال   ولا ريب أن النبي صلى الله عليه وسلم بل ومن هو دونه حي يسمع كلام الناس كما قال صلى الله عليه وسلم ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام و ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه رواه ابن عبد البر و صححه لكن في مسألتهم أنوا ع من المفاسد منها إيذاؤهم له بالسؤال ومنها إفضاء ذلك إلى الشرك وهذه المفسدة توجد معه بعد الموت دون الحياة فإن أحدا من الأنبياء و الصالحين لم يعبد في حياته إذ هو ينهى عن ذلك و أما بعد الموت فهو لا ينهى فيفضي ذلك إلى اتخاذ قبره وثنا يعبد ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تتخذوا قبري عيدا وقال اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد   وقال غير واحد من السلف في قوله تعالى وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ولا يعوق ونسرا إن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم   ولهذا المعنى لعن النبي صلى الله عليه وسلم الذين

اتخذوا قبور الأنبياء و الصالحين مساجد   و أما النبي أو الصالح إذا بنى له مسجدا في حياته يصلى فيه معه فهذا من أفضل الأعمال   فحكم الحياة يفارق حكم الممات وذلك كما جاءت السنة بذلك.